قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

أغويتني: غَوِيَ الرجل وغَوَى: ضلَّ. وأغواه: أضلَّه (الأقرب).

التفسير: هذا الكلام أيضًا من قبيل المجاز أي لسان حال إبليس، والرسالة التي تنطوي عليها هذه الآية هي أن الذين يكفُرون بالرسل في بادئ الأمر يمنعهم العناد من الإيمان فيما بعد أيضًا، فيحترقون كمدًا وغضبًا بما لم يوفَّقوا للإيمان في أول الأمر، وبالتالي يريدون القضاء على جماعة الأنبياء، فلا يألون جهدًا في تعذيب المؤمنين ليرتدوا عن دينهم. وقد أكد الله على هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله ﴿تلكَ القُرَى نقصُّ عليكَ من أنبائها ولقد جاءتْهم رسلُهم بالبيِّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبلُ كذلكَ يطبَعُ اللَّهُ على قلوبِ الكافرين﴾(الأعراف:١٠٢).. أي أن أئمة الكفر إنما يُحرَمون من الإيمان لأنهم كفروا برسلهم في أول الأمر، فيرون في تصديقهم للرسل فيما بعد خزيًا وعارًا عليهم، فيزدادون عداءً، ويُضلّون باقي القوم، تنفيسًا لغيظهم.

ولقد سبقت الإشارة إلى هذا المعنى في مستهلّ هذه السورة أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿ربَما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ (الآية ٣).. أي كم يتمنى الكفار ليتهم آمنوا أولَ الأمر كيلا يروا هذا الخزي والهوان، ولكن ما دام كُفرهم قد حرَمهم هذا الشرفَ أولَ مرة، فلا يُؤمنون رغم حسرتهم هذه، بل يزدادون تعصبًا وعنادًا.

وأما تحدّي الشيطان لتضليل الناس في قوله ﴿ولأُغوِينّهم﴾ فمثاله ما ذكره القرآن الكريم على لسان معارضي شعيب عليه السلام في قوله تعالى ﴿لَنُخرِجَنّكَ يا شعيبُ والذين آمَنوا معكَ مِن قريتِنا أو لَتعُودُنّ في ملَّتِنا قال أَوَلو كنّا كارهين﴾

(الأعـــراف: ٨٩)، وقولـــه تعالى: ﴿وقال الذين كفَروا لِرسلِهم لَنُخرِجَنّكم مِن أرضِـــنا أو لَتَعودُنّ في ملّتنا﴾(إبراهيم: ١٤). وكأن معارضي كل نبي أعلنوا: ما دمـــنا لم نوفَّق نحن للإيمان فلن نبرح حتى نردّ المؤمنين عن دينهم. وهكذا كان دأب أعداء الرسول ﷺ حيث يقول القرآن عنهم ﴿ويريدون أن تَضلُّوا السبيلَ﴾ (النســـاء: ٤٥).. أي أن أعـــداءه ﷺ من اليهود يريدون أن يرتد المسلمون عن دينهم. وكذلك ورد عن الكفار الآخرين ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يَرُدُّوكم عن دينكم إنِ اسْتطاعوا﴾(البقرة: ٢١٨).. أي أنهم لن يبرحوا يحاربونكم إلى أن يـــردّوكم عن الإسلام، ولكن الله تعالى سوف يكسر شوكتهم في آخر المطاف، ويجعلكم الغالبين.

والمشهد نفسه نراه نحن المسلمين الأحمديين اليوم حيث تريد كل الدنيا ردَّنا عن موقفنا، ولكن من ذا الذي يستطيع إهلاكَ من يريد الله حياته؟

ما أشدَّ عمايةَ الكافر! فبدلاً من أن يلوم نفسه على رفضه الدينَ يريد أن يصبّ جامَ غضبه على الله تعالى قائلاً: ما دام هو لم يجعلني مؤمنًا فلن أبرح حتى أجعل عباده المؤمنين مرتدين!

قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٢﴾

التفسير: لقد ذكر الله ﷻ من قبل أن عباده الذين يُخلِصهم ويختارهم لا يملك علـــيهم الشيطان أي سلطة ولا تصرف، وأما الآن فأخبر الله تعالى كيف يصبح العـــباد مخلَصـــين حيث قال: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ﴾ أي أن من واجبي أن أهديهـــم إلى ســـبيلي، وسوف أدلّهم على سبيلي بالوحي والإلهام، فيصِلون إليّ رأسًا، ولا يمكن أن ينحرفوا عن سبيلي إلى سبيل الشيطان المردود.

ونظرًا إلى هذا المفهوم سيكون تقدير قوله ﴿هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ﴾ كالآتي: هـــذا صراط مستقيم وبيانُه عليّ.. أي أن عباد الله المخلَصين لا يعتمدون على

عقولهم وحدها بحثًا عن صراط الله المستقيم، لأن من يعتمد في هذا البحث على العقـــل وحده يقع في قبضة الشيطان؛ ولكن الذي أهديه إلى سبيلي يستحيل أن يخضـــع للتأثيرات الشيطانية، إذ أتولى بنفسي رعايته وحمايته، فيأتي إلي رأسًا من دون أن ينحرف عن سبيلي يمينًا أو شمالاً.

وقـــد تعـــني هذه الآية أن عبادي الذين يكونون مخلَصين مختارين يجدونني على الفور، ولا يبقون بعد ذلك تائهين في البحث عني.. أي أنهم ليسوا ممن يسير في الصراط المؤدي إلي، ولكنه يصير عرضة للشيطان الذي يختطفه قبل أن يصل إلي، بـــل إن عبادي المختارين هؤلاء يسيرون – بعد تلقّي الوحي والإلهام مني – في الطريق الذي لا بد أن يمر علي.. أي أنهم يكونون قد حازوا على وصالي وقربي من قبل، وأما حياتهم الباقية فيقضونها في محاولة التخلق بالأخلاق الإلهية خُلقٍ تلو خلق؛ وأنّى للشيطان أن يقترب من مثل هؤلاء المقربين لديه ﷻ.

لقـــد بين الله تعالى هنا أنه لا يكون هدفًا للانحراف عن صراط الله المستقيم إلا الذي ما يزال في طور البحث عنه ﷻ، ولكن الذي يكون قد وصل إلى الله ﷻ ووجده فإنما يسعى للمزيد من قربه تعالى، ومن المحال أن يُغويه الشيطان ويُضلّه، إذ كيف يمكن لإنسان أن ينكر ما شاهده بأم عينه وما جرّبه بنفسه؟

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

سلطان: هو الحُجّة؛ التسلطُ؛ قدرةُ الملِك (الأقرب).

التفســـير: تـــتحدث هذه الآية عن فئة محمية أخرى ليست من الحائزين على درجـــة النبوة، كما ليست من الذين ينالون الهدى والإيمان ببحثهم الذاتي، وإنما تصل إلى الحق عن طريق الأنبياء وغيرهم من الواصلين إلى الله تعالى. فهؤلاء أيضًا يتمـــتعون بالحماية الإلهية بحيث إن الشيطان لا يقدر على أن يتسلط عليهم. إنه

يحاول الهجوم عليهم ولكن هجومه يكون ضعيفا جدًّا بالنسبة لهم لأنهم يتمتعون من القوة الإيمانية بحيث يردّون هجمات الشيطان بنجاح، وينجون منه عمومًا. نعم قد يكون بينهم من لا يكون إيمانه قائمًا على أساس متين من اليقين الكامل بل تشوبه شوائب الضعف، ومثل هذا يخضع أحيانًا للتأثير الشيطاني.. أي يرتكب المعصية، وهو الذي يبقى في خطر أن يقع فريسة لهجمة الشيطان الذي قد يقبض عليه ويتسلط. غير أن الشيطان يمارس سلطته على مثل هؤلاء بسبب ضعف إيمانهم وبعد ارتكابهم بعض المعاصي، وإلا فإن هؤلاء أيضًا يتمتعون بحماية الله في بداية الأمر.

وفي هذا إيماءة إلى أن الفطرة الإنسانية نقية طاهرة، حيث بين الله تعالى أنه لا يَضلّ عن الصراط السوي إلا من يُنجّس بنفسه فطرته النقية ويتبع خطوات الشيطان. ولقد أوضح الله ﷻ هذا المعنى في مكان آخر من القرآن الكريم بقوله ﴿وقد خابَ مَن دسّاها﴾(الشمس: ١١).. أي لا يَهلك إلا من يُفسد نفسه الطاهرة ويدفنها تحت تراب المعاصي.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٤﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

جهنم: دارُ العقاب بعد الموت (الأقرب). (راجِع لمزيد التفصيل شرح الكلمات للآية رقم ٢٠ من تفسير سورة الرعد).

موعدهم: الموعد: الوعد؛ ومكانهُ (الأقرب).

التفسير: لقد ورد في موضع آخر من القرآن الكريم أن المراقبين على جهنم عددهم تسعة عشر (المدّثّر: ٣١ و٣٢). ذلك أن في الإنسان تسع حواسّ في

الواقع، وإن كان المشهور أنها خمس، ولكن لو أضفنا إليها ما نحس به الحر والبرد والوقـــت والثقل لصارت تسعًا. وهناك إزاء هذه الحواس التسع الظاهرة، تسع حـــواس أخرى روحانية، وهكذا يصبح عددها ١٨، وعندما نضيف إليها القوة المـــتحكمة فيها يصبح المجموع ١٩؛ وحين لا يعمل الإنسان وفق تعليمات هذه الحـــواس ال ١٩ يضل سواءَ السبيل. وقد جعل الله ﷻ عدد المراقبين على جهنم أيضًـــا ١٩ بحسب عدد هذه الحواس، تنبيهًا لأصحاب النار أن سوء استخدامهم لهذه القوى الـــ ١٩ هو الذي أدى بهم إلى هذا المصير.

أما قولـــه تعالى: ﴿لها سبعةُ أبواب﴾ فلا يعني بالضرورة أن أبواب جهنم سبعة بالضبط، لا أكثر ولا أقل؛ ذلك أن عدد السبع أو السبعين يعني – عند العرب – الكثرةَ أو التمام والكمال (المفردات للراغب وتاج العروس، تحت "سبع").

أمـــا قولـــــه تعـــالى: ﴿لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ﴾ فمعناه أنه سيكون في الجحـــيم باب خاص بكل سيئة وسوف يُدعى منه كل من ارتكب تلك السيئة. وورد في الحديـــث أن للجنة أيضًا أبوابًا مختلفة نظرًا إلى حسنات مختلفة، وأن من كان مِن أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، وهلم جرًّا. (الترمذي: المناقب)

والمراد من الجزء هنا مجموعة من أهل النار. وهكذا فإن هذه الآية تساعدنا على تصحيح خطأ وقع فيه البعض لدى تفسير قوله تعالى لإبراهيم عن الطيور الأربعة ﴿ثم اجْعَلْ على كل جبل منهن جزءًا﴾(البقرة: ٢٦١).. حيث زعموا – بسبب ورود كلمة (جزءًا) – أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يمزِّق الطيور ثم يضع جزءًا من لحمهـــا المفروم على كل جبل (انظُر تفسير ابن كثير والبغوي). مع أن المراد من أجزاء الطيور هو نفس ما أريد في هذه الآية من أجزاء الجهنميين.. والمعنى: ضَعْ على كل جبل طيرًا من هذه الطيور الأربعة.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

الجَنة: أصلُ الجَنِّ سترُ الشيء، يقال: جنَّه الليلُ: ستَره. والجَنّةُ: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. وقد تُسمَّى الأشجارُ الساترة جَنّةً. وسُمّيت الجنّةُ إما تشبيهًا بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بَون، وإما لسَتْرِه تعالى نِعَمَها عنا التي أشار إليها بقوله تعالى ﴿فلا تعلَم نفسٌ ما أُخفيَ لهم مِن قُرّة أعينٍ﴾ (المفردات).

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى ﴿ في جنات وعيون﴾ أن المتقين يعيشون في مياه العيون، وإنما المعنى أنهم يسكنون في جنات فيها العيون.

لقد بيّن الله تعالى هنا أن الشياطين سوف يدخلون بسبب كفرهم الجحيمَ، التي ستتمثل لهم في هذه الدنيا على شكل نيران الحسرات والعذاب الدنيوي، وأما في الآخرة فعلى صورة عذاب النار؛ وأن المؤمنين سيعيشون في هذه الدنيا تحت ظل رحمة الله ورعايته، وستتفجر من قلوبهم عيونُ المعارف والعلوم، مما سيزيدهم رحمةً وفضلاً.. شأن الشجرة التي تنمو وتزدهر بالريّ، وأما في الآخرة فسوف يُعطَون تلك الجناتِ والعيونَ التي وُعدوا بها في آيات عديدة من القرآن الكريم.

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

سلام: السلام : اسمٌ من التسليم؛ الاستسلامُ للانقياد والطاعة. والسلام اسمٌ من أسماء الله لسلامته من النقص والعيب والفناء (الأقرب).

التفسير: يبدو أن هذا من قول الملائكة.. أي أنها تقول للمؤمنين في الدنيا وفي الآخرة أن ادخلوا في جنة فيها السلام والأمن. ذلك أن المؤمنين يستجيبون للملائكة حين تحفزهم على الخير فلذلك تحبّهم الملائكة وتستأنس بهم، وتبشّرهم

فرحانةً بما يقرره الله ﷻ في شأنهم من خير وفضل.

والسلام المشار إليه في قوله تعالى ﴿ادْخُلوها بسلامٍ آمنين﴾ نوعان: السلام الداخلي والسلام الخارجي، فكلمة ﴿سلام﴾ إشارة إلى السلام الداخلي أي حمايتهم من كل حزن وقلق، وأما كلمة ﴿آمنين﴾ فهي إيماءة إلى السلام الخارجي أي نجاتهم من تعذيب العدو واضطهاده.

كما أن لفظ ﴿سلام﴾ إشارة إلى وعد الله الذي قد قطعه مع المؤمنين في قوله: ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾(يس:٥٩).. وكأن الملائكة تبشّر هؤلاء المؤمنين بأن الله تعالى قد قدّر لكم سلامًا خاصًّا من عنده. وفي هذا دليل على شدة تعلّق الملائكة بالمؤمنين حيث تخبرهم بالقرارات الإلهية في شأنهم بأسرع ما يمكن.

كما تحمل لنا هذه الآية رسالة أخرى بأنه ما لم ينزل الأمر من الله بالسلام لا يمكن لأحد أن يتمتع بالأمن والسكينة.

كما أن هذه الجملة إشارة إلى فشل الشيطان في تهديده بأنه سيسعى جاهدًا لإغواء المؤمنين، فكأن الله ﷻ يهنئ المؤمنين قائلاً: ها قد وصلتم أخيرًا إلى داري المباركة سالمين بالرغم من مكائد هؤلاء الشياطين.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

غِلّ: غَلَّ صدُره غِلاًّ: كان ذا غِشٍّ أو حِقدٍ وضِغْنٍ. والغِلّ: الغشّ والحِقد (الأقرب).

سُرُر: السرر جمع سرير وهو: التختُ، ويغلب على تخت الملك، يقال: زال عن سريره: ذهب عزُّه ونعمتُه. والسرير أيضًا: المُلكُ؛ النعمةُ؛ خفضُ العيش (الأقرب).

التفسير: لقد قال الله ﷻ في موضع آخر ﴿ولِمَن خاف مَقامَ ربِّه جنّتانِ﴾

(الـــرحمن: ٤٧).. أي أن للمؤمنين جنتين: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. ولقد ذكـــر الله هنا من علامات الجنة أن قلوب أهلها تكون خالية من حقد الآخرين. مما يعني أنه لن يدخل الجنة إلا مَن نزع من قلبه البغض والحقد ضد أخيه المؤمن في هـــذه الدنيا. لذا فمن واجب جماعتنا بل المسلمين جميعًا أن ينتفعوا من هذه الوصفة الإلهية لدخول الجنة، فلا يكنّوا في قلوبهم ضد أحد مِن غلّ ولا بغض.

وقولـــــه ﷻ ﴿على سرر متقابلين﴾ أيضًا يشير إلى كونهم متحابّين، لأن المحبة هي التي تجعل الإنسان يجلس مع صاحبه وجهًا لوجه، ليتمتع بالنظر إلى محياه.

لقد ركز القرآن الكريم – في أماكن كثيرة وبتعبيرات شتى – على جلوس أهل الجـــنة على السرر، ليبين أن كل إنسان في الجنة يكون بمثابة الملك، متحررًا من حكم الآخرين إذ لا حكمَ يومئذ إلا لله الذي لا يمثّل حكمُه ثقلاً على الإنسان، بل يزيده عزًّا وشرفًا؛ لأن طاعته تعالى هي التي تمنح الإنسان الحرية الحقيقية. وقد أكد الله ﷻ على هذا المعنى أيضًا في موضع آخر في القرآن حيث أعلن عن أهل الجـــنة ﴿لهـــم فيها ما يشاءون﴾(النحل:٣٢).. بمعنى أنه ما من أمنية يتمنونها إلا وســـوف تتحقق، وكأن كل واحد منهم سوف يمارس حكمه وقانونه في دائرته الخاصة به؛ وهذا هو المُلك والحكم بعينه.

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

نَصَـــبٌ: نَصِـــبَ الـــرجلُ ينصَب نَصَبًا: أعيا. ونَصِبَ في الأمر: جدّ واجتهد (الأقرب).

التفســـير: لقد أخبر الله ﷻ هنا أن الإنسان سوف يعمل في الجنة أيضًا، ولكن مـــن دون أن يشعر بالتعب أو الملل، فإن التعب دليل على الفناء. ذلك أن شعور الإنسان بالتعب هو في الواقع تحذير طبيعي أنه قد استهلك من بدنه بعض الخلايا

النافعة كالشحم أو غيره، وأن عليه الآن أن يكفّ عن العمل ويرتاح، أو يتناول بعض الطعام ليتزود ببعض الوقود. لقد قرأتُ في أحد الكتب الطبية أن الإنسان يستهلك ملايين الخلايا من جسمه بمجرد أن يحرّك يده قليلاً. فالشعور بالتعب بعد قليل من العمل دليل على ضياع الكثير من طاقات الجسم التي يجب أن تعوَّض. فثبت أن التعب علامة الفناء. إذن فقد أخبر الله تعالى بقوله ﴿ لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ﴾ أن الأجسام لن تتحلل في الجنة وبالتالي لن تتعرض للفناء.

كما يتضح من ذلك أننا في الجنة لن نتغذى من أجل أن نعوّض عن طاقتنا المفقودة إذ لا فناء للطاقات هناك، بل سيكون للغذاء هناك نفع آخر وهو أن يزيدنا طاقة على طاقة؛ وبتعبير آخر فإن خطواتنا في الجنة لن ترجع القهقرى، بل ستمضي بنا إلى الأمام على الدوام.

ثم قال الله ﷻ ﴿وما هم منها بمخرَجين﴾.. أي لن يأتي عليهم الموت ولا الفناء. ذلك أن التعب هو الذي يدفع بالإنسان إلى الموت، لأن طاقاته البدنية تُستهلك شيئًا فشيئًا إلى أن تفنى نهائيًّا؛ وبما أن الجنة خالية من التعب والنصب، فلا موت فيها ولا خروج منها.

علمًا أن الجنة مقام روحاني. مما لا شك فيه أن نعمها قد شُبّهت بنعم هذه الدنيا على وجه المجاز والتمثيل، ولكن الحق أن نعمها أسمى من أن يستوعبها عقل الإنسان. والواقع أن هذه الآية إنما تومئ إلى حقيقة أخرى وهي أن الصالحين يعانون في الدنيا من الهجمات الشيطانية، ولكنهم في الجنة سيتخلصون من مثل هذه العراقيل تمامًا، وستنعم قلوبهم بأمان كامل من أي تعب ونصب، إذ ليس هناك أي خطر دائم ولا مؤقت لضرر الشيطان.

كما يمكن أن نستدل بهذه الآية على أن الجنة ليست مكانًا للكسالى يستجمّون فيها ويرتاحون عاطلين، بل إن أهلها سوف يعملون أيضًا؛ إذ لا داعي لنفي النصبَ عنهم لو لم يكن هناك أي عمل لهم؟ فالذين يظنون أن الجنة مكان للتمتع بالأكل الشهي والعيش الهنيء عليهم أن يصحّحوا تفكيرهم الخاطئ هذا.

إن الجـــنة مقـــام العبودية كما صرّح الله بذلك في قوله ﴿فادْخُلي في عبادي۝ وادخُلي جنتي﴾(الفجر: ٣٠ و٣١).. أي إنما يحرز الإنسان مقامَ العبودية الكاملة لله تعـــالى بعد دخولـــه الجنة؛ والظاهر أن العبد يعمل، ولا يجلس عاطلاً. فثبت أن المقام الحقيقي للعمل هو الجنة حيث يصير الإنسان كاملاً في عبوديته.

واعـــلموا أيضًا أن المتعة الحقيقية للجنة إنما تكمن في كون الإنسان سوف يجد هـــناك اللـــذة القصوى في عباداته التي سيقوم بها متحررًا من تعب الصراع مع المشاعر التي تعرقله عن العبادة. والظاهر أن الإنسان لا يمل ولا يتعب من العمل الذي يجد فيه المتعة واللذة.

ولكن المؤسف أن المسلمين عمومًا يصوّرون الجنة وكأنها دار للمساكين حيث يعـــيش أهلها عاطلين، ويتمتعون بأشهى المأكولات مجّانًا، من دون أن يطردهم منها أحد! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

التفســـير: لقـــد وردت هنا كلمة ﴿عبادي﴾ بمعناها العام الذي يشمل الصالح والطالح من الناس، وتعني الآية: أنْ طَمْئِنْ عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ألا ييئسوا من رحمتي ظنًّا منهم أنهم قد ارتكبوا كثيرًا من المعاصي التي لا سبيل بعدها للـــتوبة؛ فأنـــا الغفور، سأغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم. وقُلْ لعبادي المؤمنين ألا يكـــتفوا بمـــا عملوا من الصالحات ظانين أنهم قد حققوا ما قُدّر لهم من الكمال الـــروحاني؛ فأنـــا الرحـــيم، سأزداد رحمةً وفضلاً عليهم كلما ازدادوا صلاحًا؛ فيجب ألا يتوقفوا عن فعل الخيرات.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

عـــذابي: العـــذاب: كلُّ ما شقَّ على الإنسان ومنَعه عن مراده. وفي الكليات: "كـــل عذاب في القرآن فهو التعذيب إلا ﴿وَلْيَشهَدْ عذابَهما طائفةٌ﴾ فإن المراد الضربُ" (الأقرب).

التفســـير: يقول الله ﷻ: إن عذاب أحد لا يمكن أن يسمَّى عذابًا إزاء عذابي؛ ذلك أن تعذيب إنسان لأحد تعذيب مؤقت، ثم هناك مخرَجٌ منه وملاذ ألا وهو ذات الـــبارئ ﷻ، ولكن إذا أراد الله أن يعذّب قومًا بعذاب فلا مناص منه، إلا أن يقول الإنسان لربه: "لا ملجأَ ولا مَنْجَى منك إلا إليك."

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٢﴾

التفسير: كان المقصود هنا الحديث عن سيدنا لوط عليه السلام، ولكن القرآن – كما أســـلفتُ – كـــلما تناول قصة لوط بالتفصيل تحدث أولاً عن إبراهيم عليهما الســـلام. ولم يفعـــل القرآن ذلك صدفةً، بل قصدًا، وذلك ليبين أن لوطًا كان رسولاً تابعًا لإبراهيم عليهما السلام.

وقد ذكر القرآن حادث لوط بعد قصة آدم عليهما السلام لأن أهل مكة كانوا يعتـــبرون أنفســـهم من أولاد إبراهيم الذي كان لوط من أقاربه. فكأن القرآن الكريم يذكّر بذلك أهل مكة بأن الوحي قد سبق أن نـــزل على إبراهيم ولوط اللذيـــن تعرفون أحوالهما، فلِمَ تنتابكم الوساوس والشبهات لدى نزول الوحي الـــيوم عـــلى محمد؟ كما يحذّرهم القرآن بذكر آبائهم هؤلاء أن إنكار الوحي يعرّض الإنسان للعقوبة الإلهية.

ولا جـــرم أن هذا الأسلوب القرآني يمثّل دحضًا لأولئك الذين يزعمون أن لا ربطَ ولا ترتيبَ بين آيات القرآن.

إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

وَجِلُــون: وَجِلَــه يَوجَلــه وَجَلاً: خاف. وفي المفردات: استشعر بالخوف. والوَجِل: الخائفُ (الأقرب).

التفســير: يــبدو أن أمارات الخوف كانت بادية على وجوه ضيوف إبراهيم، فأدرك بفراسته أن وراءهم ما يهمّهم ويقلقهم.

أو توجــس إبراهيم منهم الخوف لأنه حينما قدّم إليهم الطعام - كما ورد في سورة هود - اعتذروا عن تناوله، فعرف أنهم قد أتوه بخبر محزن ربما يخصه هو، فقال لهم: إن امتناعكم عن تناول الطعام يريبني، وأخاف أنكم لم تأتوني لخير.

وقــد يكون سبب خوف إبراهيم أنه ظن أنه ربما قد أساء ضيافتهم، فقال لهم: أخاف أن أكون قد فرّطت في شأنكم.

قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٤﴾

التفســير: لما لاحَظَ الضيوف آثار القلق لدى إبراهيم زفّوا إليه البشرى الخاصة به وقالوا: إن الخبر المحزن الذي أتينا به لا يخصك، بل نبشّرك بولادة غلام عليم.

ولا جرم أن هؤلاء الضيوف أو أحدًا منهم قد تلقى وحيًا حول ما سيحدث مع إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولا غرابة في ذلك، إذ هكذا جرت سنة الله تعالى فــيما يــتعلق بالأنباء، فقد قال النبي ﷺ "يراها المؤمن أو تُرى لــه" (الترمذي: الرؤيا).. بمعنى أنه ﷻ يخبر المؤمنَ بمشيئته ﷻ مباشرةً وبواسطة الآخرين أيضًا.

وعــندي أن إبراهــيم ولوطًــا كانا غريبين في تلك المنطقة إذ هاجرا إليها من العــراق، حيث ورد في التوراة أنهما كانا من سكان قرية للكلدانيين اسمها أُور

(تكوين ١١: ٢٨ و٣١). كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم لما أُوذي على يد قومه قال ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾(العنكبوت: ٢٧). وبعد ما اشتدت المعارضة وحاول قومه إحراقه في النار التي جعلها الله ﷻ بردًا وسلامًا عليه، قام إبراهيم بالهجرة إلى أرض كنعان حيث يخبرنا سبحانه وتعالى: ﴿ونَجَّيْناه ولوطًا إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها لِلعالَمين﴾(الأنبياء: ٧٢)..أي نجّاه الله إلى أرض كنعان التي تسمى اليوم فلسطين حيث توجد أماكن مقدسة لليهود مثل أورشليم وغيرها. (راجع أيضًا تكوين ١٢: ٥)

وكانت تلك المنطقة شبه غريبة للوط لأنه قد أتاها قبل فترة قصيرة، وكان خروجه من بين أهلها المجرمين سوف يعرّضه لكثير من الصعوبة والعناء.. فأوحى الله إلى هؤلاء الضيوف- الذين كانوا على ما يبدو من سكان المنطقة نفسها- أن يقوموا بتهدئة خاطر لوط وأن يشيروا عليه بالمكان المناسب الذي سيهاجر إليه.

وأما قول الضيوف لإبراهيم ﴿إنّا نبشرك بغلام عليم﴾ ففيه تأكيد وتسلية من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام الذي كان رقيق القلب جدًّا حيث يخبرنا الله تعالى ﴿إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾(التوبة: ١١٤). ذلك أن خبر هلاك القوم كان سيمثّل صدمةً فاجعة لإبراهيم، فتخفيفًا من صدمته زفّ الله له البشرى بولد عليم بواسطة هؤلاء الضيوف. فكأنه تعالى أنزل السكينة على قلب إبراهيم وقال: إذا كنا سنُهلِك قومًا فاسدين من جهة، فإننا من جهة أخرى نرسي الأساس لأمة صالحة أيضًا.

ولما كان العلم الحقيقي إنما يحصل بالنبوة فقد تنطوي كلمة ﴿غلام عليم﴾ على البشارة بكون هذا الغلام أي إسحاق نبيًّا أيضًا.

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٥﴾

التفسير: فكّر سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه قد أصبح شيخًا طاعنًا في السن، فلا بد أنهم يبشّرونه بولادة الابن بناءً على إلهام تلقّوه من عند الله تعالى؟ فقال لهم مستفسرًا: ما هو مصدر هذه البشرى؟

قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

القانطين: قنَط يقنُط قُنوطًا: يَئِسَ (الأقرب).

التفسير: قال لـه الضيوف: لم نبشرك عن فراغ؛ إذ لا حقَّ لنا كبشر أن ندلي بنبأ كهذا، إنما البشرى من الله تعالى، ونزفّها إليك بما مَنَحَنا الله من حق؛ أو المعنى أننا نزفّها إليك بناء على أوامره التي آتانا إياها نظرًا إلى الظروف السائدة، فلا تقنُطْ من رحمة الله.

وقولهم: ﴿فلا تَكُنْ من القانطين﴾ يدل على أن هؤلاء الضيوف كانوا بشرًا وكانوا غير مطلعين على درجة إبراهيم في التوكل على الله. لو كانوا ملائكة لما خاطبوا إبراهيم بمثل هذه الكلمات لأن الملائكة كانت تعرف جيدًا مقام إبراهيم في التوكل على الله تعالى.

قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٧﴾

التفسير: لما سمع إبراهيم قولَهم ﴿فلا تَكُنْ من القانطين﴾ ردّ عليهم بنبرة قوية: هل تظنونني ضعيف الإيمان. إنه لا ييئس من رحمة الله إلا أهل الضلال؟ إنني واثق برحمة ربي الثقة كلها، إنما أقصد من سؤالي أن أعرف: هل هذه البشرى من قبيل ثرثرة المنجمين، أم أن الله تعالى هو الذي أخبركم بها بالوحي. أما وقد كشفتم حقيقة الأمر فلم يبق لديّ الآن أدنى شك في صحة البشرى.

لاحِظوا الغيرة الإيمانية عند إبراهيم عليه السلام. فهو مِضياف لدرجة أنه ما لبث أن

ذبـــح عِجـــلاً وقدّمه لضيوفه شواءً لذيذًا، وحين وجدهم لا يأكلون خاف أن يكون قد فرّط في ضيافتهم، ولكن لما قال له الضيوف ﴿فلا تَكُنْ من القانطين﴾ ثارت غيرته الإيمانية، فأجابهم من فوره ﴿ومَن يَقنَطُ مِن رحمةِ ربِّه إلا الضالّون﴾؟ أي أن المؤمـــن لا ييئس من رحمة الله أبدًا. هكذا يغار أنبياء الله ﷻ على إيمانهم ودينهم. فكم هو حريّ بكل مؤمن أن يبدي الغيرة من أجل إيمانه متأسيًا بأسوة هؤلاء الكرام! لو كان هناك شخص آخر مكان إبراهيم لقال لأولئك الضيوف: كـــيف أصـــدّقكم وقد هجَم علي المشيب، ووهنت عظامي واضمحلت قوتي. ولكن إبراهيم يقول: إذا كان الخبر من البشر فأرى فحصه واجبًا، وأما إذا كان من عند الله تعالى فإني أصدّقه بالرغم مما أصابني من وهن وضعف.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

خَطْبُكم: الخطب: الشأنُ؛ الأمرُ صغُر أو عظُم، ومنه: هذا خطبٌ يسيرٌ وخطبٌ جلـــيلٌ. وقـــيل: الخطـــب اسمٌ للأمر المكروه دون المحبوب؛ وقيل: هو المكروه والمحبوب جميعًا (الأقرب).

التفسير: عندما تبين لإبراهيم أنهم لم يجدوا في ضيافته أي تقصير كما لم يأتوا له بـــأي خبر مخيف.. أدرك من فوره أنهم جاءوه بهدف آخر، إذ لو كان قصدهم زفَّ البشـــرى إليه فحسب لما أصابهم هذا الذعر والحزن؛ فلا شك أنهم يحملون خـــبرًا آخر أكثرَ خطورة، ولا يمكن أن يكون خبرًا سارًّا وإلا لما عافَوا الطعام. ولذلك سألهم ﴿ما خطبُكم أيها المرسلون﴾؟ أراكم مذعورين قلقين؛ وهذا يعني أنكم لم تأتوا لتبشروني بالمولود فقط، إنما وراءكم أمر آخر أكثر خطورة.

إن هذا الاستدلال من إبراهيم عليه السلام أيضًا يدل بكل وضوح على أنه كان يعتبر الضيوف بشرًا، ومن أجل ذلك نجده لا يطمئن رغم تلقيه بشارة الابن على لسانهم، بل يستنتج من امتناعهم عن الأكل أنهم قد جاءوا بخبر محزن. فلو أن إبراهيم اعتبرهم ملائكة بسبب البشرى التي زفّوها إليه لما اندهش على امتناعهم عن الأكل، ولما سألهم: ﴿فما خطبُكم أيها المرسَلون﴾.. أي ما هو هدفهم الحقيقي إذن؟ ذلك أن إبراهيم لم ينتبه إلى أن وراءهم أمرًا خطيرًا آخر إلا بشيء واحد، هو امتناعهم عن تناول الطعام رغم كونهم بشرًا. فقال لهم: أراكم محزونين ولأجل ذلك لا تأكلون. فأجابوه قائلين: الأمر هكذا، فإننا قد أُرسلنا بخبر نزول العذاب على قوم مجرمين.

إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٠﴾

التفسير: هنا حددوا لإبراهيم الشعب المقدر هلاكه، مؤكدين له نجاة عائلة لوط كيلا يحزن إبراهيم عليهم.

وأما قولهم ﴿إنا لمنجّوهم﴾ فهو عندي إشارة إلى أن الله تعالى أرسلهم لكي يأخذوا لوطًا إلى مكان محفوظ.

ويتبين من قولهم ﴿أجمعين﴾ أن من نجا مع لوط عليه السلام كانوا جماعةً في نظر القرآن الكريم، ولكن التوراة تزعم أنه لم ينج معه إلا بنتان له فقط (تكوين ١٩: ٣٠).

إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

قَدَّرْنا: التقدير تبيينُ كميةِ الشيء. وتقديرُ الله: الحكمُ منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا. والتقدير من الإنسان: التفكرُ في الأمر بحسب نظر العقل وبناءُ الأمر عليه (المفردات).

الغابـــرين: الغابـــر: الباقي، وجمعُه الغُبَّرُ والغابرون، ومنه: ﴿فأنجيناه وأهلَه إلا امرأتَه كانت من الغابرين﴾.. أي من الذين بقَوا في ديارهم فهلكوا (الأقرب).

التفســـير: لما كانت زوجة سيدنا لوط تخلفت و لم تخرج معه فما استطاع أن يخلّصها من الهلاك.

وبما أن كلمة ﴿قَدَّرْنا﴾ تعني أيضًا "حكَمْنا وقرَّرْنا" لذلك يستنتج البعضُ منها أن الضيوف كانوا ملائكةً لأنها هي التي يحق لها أن تقول "قَرَّرْنا".

ولكـــن هذا الاستنتاج ليس بصحيح، إذ لا يحق للملائكة أيضًا أن يقولوا قَرَّرْنا وحكَمْـــنا بذلـــك، لأن الحكم والقدر بيد الله وحده، لا بيد الملائكة. فالحق أن قولهـــم ﴿قَدَّرْنـــا﴾ جاء هنا بمعنى التخمين والتقدير. ويبدو أن الله أخبر هؤلاء الضـــيوف أو بعضـــهم عـــن نجاة آل لوط بواسطة الإلهام أو الرؤيا، ولكن لم ينكشف لصاحب الرؤيا مصير زوجة لوط انكشافًا واضحًا، غير أنه فهم منها أن زوجة لوط أيضًا من الهالكين، ولذلك لم يؤكد هؤلاء على هلاكها وإنما اكتفوا بقولهم بأنها بحسب تقديرنا لن تنجو من العذاب. وقد قالوا ذلك تعظيمًا لله ﷻ، أو تخفـــيفًا مـــن وطأة الصدمة التي ستصيب إبراهيم عليه السلام. و لم يكن قولهم هذا كذبًا منهم، فإن الله تعالى يلغي أنباء العذاب أحيانًا. فمن المحتمل أن يكون هؤلاء قد فكّروا لعل الله تعالى سينجي زوجة لوط لدعائه وابتهاله، فلم يجزموا بعذابها.

هـــذا، وفي موضع آخر من القرآن الكريم قد نسب الله تعالى فعل التقدير هذا إلى نفســـه صراحةً حيث قال: ﴿قَدَّرْناها من الغابرين﴾(النمل: ٥٨). فلا يمكن إذن لهـــؤلاء الضيوف – سواء كانوا بشرًا أو ملائكة – أن يقولوا: نحن حَكَمْنا وقَرَّرْنا بعذابها. فالحق أن فعل التقدير – كما تؤكد القواميس – إذا كان من عند الله تعالى فيعني الحكم والتقرير بأمر من الأمور، وإذا كان من البشر فيعني التكهن والتخمين، وهذا هو المراد في هذه الآية.

هـــذا، ونجـــد اختلافًا بين التوراة والقرآن الكريم في صدد سرد هذا الحادث

حيث ورد في التوراة: "ولما طلع الفجر كان الملَكانِ يعجّلان لوطًا قائلين: قُمْ خُذْ امرأتَك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة." (تكوين ١٩: ١٥ و١٦)

ولكن القرآن الكريم يبين أن الله تعالى كان قد أخبر لوطًا من قبل أن زوجته لن تخرج معه، بل تكون من الغابرين حيث قال: ﴿إنا منجُّوكَ وأهلَك إلا امْرَأَتَك كانت مِنَ الغابِرين﴾(العنكبوت: ٣٤). وكل عاقل سيدرك بمنتهى السهولة أيٌّ من هذين البيانين أقرب إلى الصواب. ما دام الله ﷻ يعلم أن زوجة لوط هالكة لا محالة فما الداعي أن تُخرجها الملائكة من المدينة المقدَّر تدميرها؟ ولماذا تُخرج الملائكة القوم الذين تعلم أن الله ﷻ قد قرّر هلاكهم؟ لو كان أحدٌ سوى الملائكة أخرج هذه المرأة لعُدَّ معذورًا، ولكن ما دامت الملائكة هي التي أتت بخبر هلاك هذه المرأة من عند الله فكيف ساغ للملائكة أن تُخرج هذه المرأةَ من المدينة. فثبت أن بيان القرآن الكريم هو الحق والصواب، لا بيان التوراة.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

منكَرون: أنكَرَه: جهَله. وأنكر حقَّه: جحَده. وأنكر عليه فعلَه: عابَه ونهاه. والمنكَر: ما ليس فيه رضى الله من قول أو فعل، والمعروفُ ضدُّه (الأقرب). إذن فمن معاني قوله: ﴿إنكم قومٌ منكرَون﴾ أنكم أجانب وغرباء عن هذه المنطقة.

التفسير: لقد أكد القرآن الكريم بقوله ﴿المرسَلون﴾ ثانيةً على كون هؤلاء الضيوف بشرًا. ولكن حال التوراة عجيب حيث تصفهم مرة رجالاً، وتارةً تقول أنهم ملائكة! (انظر تكوين ١٨: ٢ -١٦ و١٩: ١-٣)، ومع ذلك تزعم أن سيدنا لوطًا قدّم لهؤلاء الملائكة خبزًا فطيرًا فأكلوه (المرجع السابق ١٩: ٣). أليست

هذه الخرافات دليلاً قاطعًا على أن أهل التوراة قد دسّوا فيها كل رطب ويابس.

قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

يمترون: امْتَرَى في الشيء: شكَّ فيه (الأقرب).

التفسير: لما قال لهم لوط عليه السلام: يبدو أنكم مسافرون قد جئتم من منطقة غريبة، ردّوا عليه: لسنا مسافرين، بل جئناك لأمر خطير وهو أن نخبرك بموعد العذاب الذي يشك فيه قومُك.

وقولهم ﴿بما كانوا فيه يمترون﴾ دليل على أن لوطًا عليه السلام كان قد أنذر قومَه بالعذاب من قبل، ولكنه لم يعرف بعد موعد نزوله، ولذلك نجد هؤلاء الرسل يقولون له: إن العذاب الذي يشكّون فيه لموشك، فاخرُجْ معنا الآن من القرية.

وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

الحق: حقَّه حقًّا: غَلَبَه على الحق. وحَقَّ الأمرَ: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. حقّ الخبرَ: وقَف على حقيقته. والحقُّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العدلُ؛ الملكُ؛ الموجودُ الثابت؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب)

التفسير: لقد سبق أن هؤلاء الضيوف لما أتوا إبراهيمَ عليه السلام سألهم ﴿فبِمَ تبشّرون﴾، فلذلك فكّروا أن لوطًا أيضًا سيوجّه إليهم نفس الأسئلة، فأخبروه بدون أي سؤال من قِبله: ﴿وأَتَيناكَ بالحقِّ وإنّا لصادقون﴾.. أي لقد جئناك بخبر مبني على وحي الله تعالى، فلا تشك فيما نقول لأننا صادقون في دعوانا.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

أَسْرِ بأهلك: سَرَى الرجلُ: سارَ عامّةَ الليلِ. وأَسْرَى الرجلُ: مِثلُ سَرَى. وقيل: "أسرى" لأول الليل و"سرى" لآخر الليل. وأسرى به: سيَّره بالليل أي سيَّره ليلاً (الأقرب).

بقِطْعٍ من الليل: القِطْعُ ظلمةُ آخرِ الليل؛ وقيل: القطعة منه؛ وقيل: مِن أوله إلى ثُلثه (الأقرب).

التفسير: الإسراء يعني الخروج في أي وقت من الليل، غير أن الأقرب إلى القياس أن الرسل أشاروا على لوط عليه السلام بالخروج في آخر الليل، وتدعم ذلك كلمة ﴿مصبحين﴾ الواردة في الآية التالية. وإذا كان هذا هو المراد فكلمة ﴿بقطع من الليل﴾ تكون شرحًا لآخر الليل.

وكانت الحكمة في اختيار هذا الموعد هي ألا يستطيع العدو مطاردتهم. ذلك أن العذاب كان سيحل على القوم بعد رحيل قافلة المؤمنين من القرية في آخر الليل مباشرة، فما كان بإمكان أهل القرية، وقد حلّ بهم العذاب، مطاردةُ القافلة المؤمنة وإن علِموا بهروبها.

وأما قوله تعالى للوط ﴿واتَّبِعْ أدبارَهم﴾ فهو دليل على عظيم رحمة الله عز وجل. ذلك أن الحماية الحقيقية من العذاب إنما تكون للنبي فقط، فما كان العذاب لينزل بالقرية ما لم يصل سيدنا لوط إلى مأمنه، لذلك نصحه الرسل أن يكون وراء القافلة المؤمنة حتى يضمن نجاةَ كل فرد منها.

هذه الآية تشكل دليلاً قاطعًا على إيمان بضعة أفراد من أهل القرية بلوط عليه السلام، وإن كـــان عددهم ضئيلاً جدًّا. تزعم التوراة أنه عليه السلام لم يخرج من القرية إلا مع بنـــتَين لـــه فقط لا غير (تكوين ١٩: ١٦)، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أنه قيل للوط: ﴿واتَّبِعْ أدبارَهم﴾، والواضح أن ضمير (هم) يُستخدم لثلاثة أو أكثر من الرجال، أو لمجموعة من الذكور والإناث، إذ من عادة العرب أنهم في حالة وجود الجنسين في مجموعة يكتفون باستخدام ضمير المذكر للجنسين (انظُرْ سورة النور الآيـــة ١٣). فلو لم يكن أحد من رجال القرية قد آمن بلوط و لم يخرج معه إلا بنـــتان له للزم أن يقال: (أدبارهما)، أو إذا كانت مع بنتَي لوط نسوةٌ أُخَر لقيل: (أدبارهن)، ولكن يستحيل أن يقال من أجل بنتيه: ﴿وَاتِّبِعْ أدبارَهم﴾؛ مما يؤكد بشكل حاسم أن القافلة المؤمنة المهاجرة من القرية كانت تتضمن رجالاً مؤمنين إلى جانـــب لـــوط وبنتيه، ولهذه المجموعة من الذكور والإناث استخدم القرآن الكريم ضميرَ المذكر (هم).

بل ورد في التوراة نفسها في موضع آخر ما يؤيد موقف القرآن الكريم، حيث تقـــول إن الرسل لما انصرفوا عن إبراهيم تقدم إلى الرب قائلاً: أتُهلك البارَّ مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًّا في المدينة؟ أفتُهلك المكان ولا تصفَحُ عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه؟ فقال الرب: إنْ وجدتُ خمسين بارًّا في القرية إني أصـــفح عنها كلِّها مِن أجلهم. و لم يزل إبراهيم ينقص العددَ متوسلاً إلى ربه من أجل نجاة القرية حتى قال: عسى أن يوجد فيها عشرةٌ من الأبرار؟ فقال الله عز وجل: لـــن أُهلكها من أجل العشرة أيضًا. وعندها لزم إبراهيم الصمت حيث أدرك أنه لا يوجد فيها حتى عشرة من الصلحاء (تكوين ١٨: ٢٢ - ٣٢).

وهذا يوضّح أن إبراهيم عليه السلام كان على علم بإيمانِ بعض أهل القرية؛ إذ كان يعـــيش عـــلى مسافة غير بعيدة من قرية قوم لوط، ولا جرم أن أخبارها كانت تصله من حين لآخر؛ فكيف يمكن أن يبتهل هكذا إلى ربه لنجاة القرية لو كان يعلم أنه لا يوجد فيها ولا مؤمن واحد. فثبت أنه كان يعلم بالتأكيد أن في القرية

بعض المؤمنين وأن عددهم قليل جدًّا، ولأجل ذلك توسل إلى الله تعالى في البداية من أجل الخمسين، ثم ظل ينقص العددَ حتى ترك الدعاء عندما بلغ عددَ العشرة. وهـــذا يعني أن المؤمنين بلوط عليه السلام كانوا أقل من العشرة. ولما كان ضمير (هم) يُستخدم لثلاثة وأكثر فيبدو أن عددهم كان يتراوح ما بين الثلاثة ودون العشرة.

وأما قوله تعالى ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ﴾ فليس نهيًا عن الالتفات الظاهري، بل المراد ألا يكترثوا بالكفار ولْيَدَعوهم يهلَكوا بالعذاب.

وأما قول التوراة عن امرأة لوط بأنها "نظرتْ من ورائه فصارتْ عمودَ ملح" (تكويـــن ١٩: ٢٦).. فلا أعلّق عليه بل أتركه لعقول اليهود والنصارى لتحكم فيه كيفما تشاء. إلا أنني أود أن أوضح هنا أن القرآن الكريم يعلن أن زوجة لوط لم تغـــادر القرية معه أصلاً، بل كانت من الغابرين. وإن براءة القرآن الكريم من مـــثل هذه الخرافات الواردة في التوراة وخُلُوَّه منها يشكّل برهانًا ساطعًا على أنه كـــلام الله حقًّـــا. أليس غريبًا أن التوراة التي هي أقرب زمنًا من القرآن إلى هذا الحـــادث تسجله بهذا الأسلوب الخرافي، بينما نجد بيان القرآن الكريم خاليًا من هذه الخرافة؟

وأما قولـــه تعالى ﴿وَامْضُوا حيث تُؤمَرون﴾ فأيضًا يؤيد ما قلت من قبل من أن هؤلاء الضيوف الرسل كانوا من البشر الذين أخبرهم الله عز وجل بالإلهام باقتراب موعد العذاب، وأرسلهم إلى سيدنا لوط ليدلّوه على المكان الذي يهاجر إليه بعد مغـــادرة القرية. فيبدو أنهم بعد أن وصفوا للوط عليه السلام معالم المنطقة التي سيهاجر إليها تركوه في بيته ليستقبلوه هناك في مهجره الذي قدره الله له.

وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

قضينا: قضى بين الخصمين: حكَم وفصَل. وقضى الشيءَ قضاءً: صنَعه بإحكام وقدَّره. قضى الأمرَ عليه: ختَمه وأوجبَه وأَلْزَمَه به. وقضى الشيءَ: أعلَمَه وبيَّنه. وقضى لك الأمرَ: أي حَكَمَ لك به (الأقرب).

دابـــر: الدابر: التابعُ؛ آخرُ كل شيء، يقال قطع اللهُ دابرَهم أي آخرَ مَن تبقَّى منهم؛ الأصلُ (الأقرب). فالدابر يعنى أحيانًا كبار القوم لأنهم يكونون كالأصل للآخـــرين، وتارةً يراد به القوم كلهم. والمراد منه هنا سائر القوم إذ يخبر الله هنا بنجاة آل لوط فقط.

التفســـير: قد تكون الآية الماضية من مقولة الله ﷻ وليست من قول الرسل، وأمـــا هذه فهي بالتأكيد من كلام الله تعالى أنـــزله على لوط تصديقًا منه ﷻ بأنه هو الذي أرسل إليه الضيوف، وأن العذاب نازل حتمًا الليلةَ قبيل الصباح.

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

المدينة: مَدَنَ بالمكان: أقام به. والمدينة: المصرُ الجامعُ؛ وقيل: الحصنُ يُبنى في أُصْطُمّةِ الأرض (الأقرب).. أي الحصن الذي يبنى في أرض خلاء وينفع كمركز القوم.

التفسير: لقد سمّى القرآن قريةَ قوم لوط عليه السلام بالمدينة، مما يعني أنها كانت تتمتع بمكانة خاصة، وبالفعل يتضح من التوراة أن تلك القرية كانت تُعتبر مركزًا لعدة

قرى (تكوين ١٩: ١٨-٣١).

أمـــا قولـــه تعالى ﴿يستبشرون﴾ فيعني أن أهل المدينة فرحوا بأنهم وجدوا في حضـــور الضـــيوف الأجانـــب فرصةً لإدانة لوط. وليس المراد أبدًا أنهم فرحوا لارتكـــاب الفاحشة مع الضيوف، كما ظن بعض المفسرين حيث قالوا أن عدد الـــرجال في القرية كان قليلا، ففرحوا بسماع خبر الضيوف طمعًا في ارتكاب الفاحشة معهم (تفسير البغوي).

قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِى فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٩﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

لا تَفضحون: فَضَحَه: كشَف مَساوئَه، وفي الدعاء: "لا تَفضَحْنا بين خَلقك".. أي استُرْ عيوبَنا ولا تَكشفْها عنا (الأقرب).

لا تُخزُون: أخزاه إخزاء: أوقعَه في الخزي أو الخَزاية وأهانه (الأقرب).

التفسير: كان أهل المدينة قد نَهَوا سيدنا لوطًا عليه السلام عن استضافة الغرباء، فلما جاءوه أدرك أنهم سوف يلومونه على إحضار الضيوف. فأخذهم ناحية وتوسل إليهم قائلاً: نعم لقد أحضرتُ الضيوف، ولكن بالله عليكم لا تُحرجوني أمامهم، ولا تهينوني؛ فالضيافة عمل حسن، فلا تعترضوا علي بسببها.

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

التفســـير: كان هناك نزاع بين سكان تلك القرية وبين القرى المجاورة، فكان قـــوم لوط حذرين من الغرباء مخافة أن يتآمروا مع العدو، فيفاجئوهم على حين غفلـــة منهم (انظُر تكوين ١٤: ١ - ١)، ولذلك كانوا ينهَون سيدنا لوطًا عن

إحضـــار الأجانب. ولكن تلك المنطقة كانت بؤرة للشر والفساد، فلذلك كان لـــوط عليه السلام يستضيف في بيته المسافرين الأجانب خشية أن ينهبهم القوم إذا ما بـــاتوا في الخـــارج. ولما جاء لوط بالضيوف هذه المرة قرر أهل القرية معاقبتَه، فـــرِحين بأنه قد وقع الآن في قبضتهم وأن الفرصة مواتية لطرده من القرية ولحل القضـــية نهائـــيًّا. وكانوا من قبل مترددين في طرده لزواج اثنتين من بناته بينهم، وبالتالي كانت القرية وطنًا لـــه أيضًا، فما كانوا ليطردوه منها من دون حجة.

يتضح من هذه الآية أيضًا أن قوم لوط عليه السلام لم يأتوه طمعًا في ارتكاب الفاحشة مع هؤلاء الأجانب. لو كانوا يرتكبون الفواحش مع الأجانب لما قالوا لـــه أَوَلم ننهَك عن إحضار الغرباء، بل كان لا بد أن يفرحوا على إحضاره إياهم.

ولـــيس من المعقول الظن أنهم ما ارتكبوا الفاحشة مع الضيوف من قبل، وإنما اكـــتفوا بـــنهي لوط عليه السلام عن إحضارهم، أما هذه المرة فصمّموا على ارتكاب الفاحشة معهم!

الواقع أن الزعم أن قوم لوط كانوا يريدون فعل الفاحشة مع ضيوفه زعمٌ مناف للعقـــل تمامًا، وقد نقله بعض المفسرين عن التوراة التي ورد فيها أن أهل المدينة كـــانوا ينوون فعل الفاحشة مع هؤلاء الملائكة (تكوين ١٩: ٥ و٦). والحق أن التوراة مليئة بكثير من الرطب واليابس من هذا القبيل، كما يوجد فيها تناقضات عديـــدة، لـــذا من الخطورة بمكان الاعتمادُ على ما ورد في التوراة ما لم يدعمه القرآن الكريم أو التاريخ الصحيح أو المنطق السليم.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧٢﴾

التفسير: يعتبر البعض هذه الآية دليلاً على صدق الزعم المذكور أعلاه، ولكن استدلالهم هذا أفحش من زعمهم أيضًا؛ حيث يزعمون، من جهة، أن أهل القرية لما كانوا مغرمين بفعل الفاحشة مع الذكور سارعوا إلى لوط طامعين في

ضيوفه الرجال، ويقولون من جهة أخرى إن سيدنا لوطًا عرض عليهم بنتين له ليُشبعوا منهما رغبتهم الجنسية بدلاً من التعرض لضيوفه! لو كان القوم تواقين إلى الإناث فكانت في بيوتهم نساؤهم، وأما إذا كانوا قد جاءوا إلى لوط طمعًا في ضيوفه الذكور فقط فلا معنى لقوله لهم: هؤلاء بناتي، فافعلوا بهن ما شئتم! هل يُمكن أن تخرج مثل هذه الكلمة من فم إنسان سليم العقل يا تُرى؟ كلا، من المستحيل أن يُنسَب هذا المعنى – حتى من قِبل الكافر – إلى إنسان معقول، بَلْهَ أن ينسبه أحد إلى نبي من أنبياء الله تعالى.

ثم كيف يُتوقع من نبي الله لوط عليه السلام أن يأمر القوم بارتكاب فاحشة هي ليست بأقل شناعةً وبشاعةً من الأولى؟ هل من عاقل يصدّق بأنه في الوقت الذي كان العذاب على وشك أن يحل بالقوم بسبب ارتكابهم الفواحش.. يشير عليهم نبي الله لوط بارتكاب فاحشة أخرى، من دون أن يتذكر أنه لم يجلب عليهم العذابَ من قبل إلا وقوعُهم في مثل هذه المعاصي؟

إن ما يعنيه سيدنا لوط عليه السلام بقوله هذا هو أنكم إذا كنتم تخافون أنني أتيتُ بالأجانب للتآمر مع أعدائكم فلا داعي لمثل هذا الخوف، لأن بناتي المتزوجات بينكم يشكّلن ضمانًا يجب أن يُطَمْئِنكم، إذ تستطيعون بكل سهولة أن تعاقبوهن انتقامًا مني لو هربتُ من عندكم بعد الغدر وإلحاق الضرر بكم. كيف تتصورون أنه يمكنني أن أقوم بأي نشاط من شأنه أن يُلحق بكم ضررًا؟ فإذا كنتم مصممين على فعل شيء في كل حال فاعملوا باقتراحي فهو أفضل من خطتكم، وهي أن تضعوا بناتي هؤلاء تحت الرقابة، فإذا رأيتم مني ضررًا بكم وغدرًا، عاقبتموهن انتقامًا مني، وهكذا ستنحل المشكلة تلقائيًّا من دون أن ترتكبوا إثم إهانة الضيوف بطردهم من قريتكم (راجِعْ للمزيد تفسير الآية رقم ٧٩ من سورة هود).

ولو قيل: كيف يمكن لنبي من أنبياء الله تعالى أن يعرّض بناتَه للأذى والتعذيب على يد القوم؟ فالجواب أن سيدنا لوطًا إنما قصد بقوله هذا تهدئة ثورة القوم

فحسب، إذ ما كان له أن يغدر بهم حتى تتعرض بناته لاضطهادهم.

ويرى بعض المفسرين أن لوطًا عليه السلام يعني بقوله ﴿بناتي﴾ نساءَ قومه، لأنه كان نبيًّا وكبير السن فاعتبر نساءَ قومه بناتٍ له، والمراد: اذهبوا إلى زوجاتكم وأَشبِعوا منهن رغباتكم إن كنتم فاعلين. (تفسير الرازي)

وبالرغم من أن هذا المعنى أفضل من الزعم المذكور أعلاه، إلا أن فيه أيضًا إيماءة إلى أن القوم كانوا يريدون الفاحشة مع الضيوف، وقد برهنتُ آنفًا أن هذه الفكرة لا يدعمها القرآن الكريم ولا العقل السليم. فبالرغم من كون هذا المعنى أفضلَ نسبيًّا إلا أنه لا يبين تمامًا ما أراده القرآن الكريم.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

لَعَمْرُكَ: العَمْرُ: الحياةُ؛ وقيل: العَمر دون البقاء لأنه اسمٌ لمدة عمارة البدن بالحياة، والبقاءُ ضد الفناء ولهذا يوصف البارئ بالبقاء وقلَّما يوصف بالعمر. والعَمْرُ أيضًا الدِّينُ، ومنه "لَعَمْري" في القَسَم .. أي لَدِيني (الأقرب). فقوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يعني أُقسِم بحياتك أو بدينك.

التفسير: قال البعض إن الحلف بحياة أحد سوى الله غير جائز، فكيف حلف الله عز وجل هنا بحياة نبيه؟ (القرطبي). والجواب: لاشك أنه لا يجوز للبشر أن يحلفوا بشيء سوى الله تعالى، ولكن الحالف هنا هو الله عز وجل، ولا بأس في أن يحلف الله بحياة أحد من مخلوقاته، فإنه تعالى قد حلف في القرآن بالليل والنهار والصبح والضحى والرياح أيضًا. والحق أنه شتّان بين حلف العباد وبين حلف الله تعالى، لأن البشر إنما يقصدون بالحلف تعظيمَ الشيء الذي يحلفون به، وأما الله تعالى فإن حلفه بشيء يعني أنه يقدّمه شهادةً على صدق ما يعلن، لأن مثل هذا الحلف نوع من أنواع الشهادة التي لا يمكن أن يقدّمها إلا الله، فإنه وحده يملك القدرة

والحكـــم عـــلى كل شيء في الكون، ولكن أنَّى للإنسان المسكين أن يملك هذا التصرف والحكم. وإذًا فلا بأس مطلقًا في حلف الله بشيء من مخلوقاته.

وهناك مسألة أخرى يجب حلّها: مَن الذي حلف الله ﷻ بحياته هنا؟ أهو لوط عليه السلام أم نبينا محمد ﷺ؟ قال بعض المفسرين إن المراد هو سيدنا لوط، وقد حلفت الملائكـــةُ بحياته (الكشاف). وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه نبينا ﷺ حيث قال: ما سمعتُ اللهَ أقسمَ بحياة أحد غير نبيه ﷺ (ابن كثير).

وعـــندي أن كلمات القرآن الكريم تؤيد رأي ابن عباس رضي الله عنهما، لأننا لـــدى قبول الرأي الأول نضطر لتقدير محذوف هو "قالوا"، والمعروف أننا نلجأ إلى تقديـــر المحذوف حين يدل عليه السياق وحين يستحيل تفسير الكلام بمعنى آخـــر؛ ولكن الأمر هنا ليس كذلك، إذ الخطاب هنا موجّه إلى النبي ﷺ بشكل قاطع بحيث لا يمكن الاعتراض عليه، لا لفظًا ولا معنًى. وقد حلف الله هنا بحياة نبيه الكريم ﷺ.. أو بتعبير آخر قدّم أحداث حياته المباركة.. شهادةً على صدق ما حدث مع لوط عليه السلام.

الحـــق أن الله قد أشار في قول لوط ﴿هؤلاء بَناتي إنْ كنتم فاعلين﴾ إلى مشابهة كانـــت بـــين لوط ونبينا محمد عليهما السلام. ذلك أنه كما كانت بناتُ لوط مـــتزوجات بـــين قومه.. كذلك كانت ثلاث من بنات النبي ﷺ متزوجات من الكفـــار، وكنّ هدفًا لاضطهادهم نتيجة دعواه ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام: سعي قريش في تطليق بنات الرسول ﷺ من أزواجهن). وبما أن قصة لوط كانت تمـــثّل صدمةً لقلب النبي ﷺ بطبيعة الحال حيث كانت مثارًا لشجونه الشخصية أيضًـــا.. فأراد الله تعالى أن يخفف من وطأة الصدمة عنه شفقةً عليه وتعبيرًا عن عظـــيم حـــبه ﷻ لـــــه، فوجَّه الخطاب إلى النبي ﷺ قائلا: ﴿لَعَمْرُك إنهم لَفِي سَـــكْرتهم يَعمَهون﴾.. وكأنه تعالى يقول: يا أحبَّ الخلقِ إلي، لا تحزنْ فإننا على علم بمصابك الجَلَل. ذلك أن أعداء لوط عليه السلام – رغم وقوعهم في المساوئ لهذه الدرجة – لم يؤذوه من خلال بناته حيث يخبرنا القرآن الكريم أنه عندما قدّم بناتِه

ضمانًا أو كرهائن عندهم ينتقمون منهن إذا رأوا منه غدرًا أجابوه: ﴿لقد علمتَ ما لنا في بناتك مِن حق﴾(هود: ٨٠).. أي أنك تعلم أنه لا يحق لنا أن ننتقم من بـــناتك. أنت الذي تعرّضنا للخطر، فكيف يمكن أن نعاقبهم عوضًا عنك؟ هذا محـــال. وأما أعداء النبي ﷺ فقد بلغ بهم السوء درجة أنهم آذوه وانتقموا منه من خلال بناته المتزوجات بينهم، حيث ورد في كتب السيرة: كان عتبة وعُتيبة ابنا أبي لهـــب تزوجا رقيةَ وأمَّ كلثوم ابنتي رسولِ الله ﷺ، فلما أعلن دعواه قال أبو لهب لابنيه: حرام إن لم تطلّقا ابنتي محمد (السيرة لابن هشام، وأُسد الغابة: تحت كـــلمة أم كلـــثوم، والإصابة في تمييز الصحابة). وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فكانـــت مـــتزوجة من أبي العاص، وكان سبب موتها أنها خرجت من مكة إلى المدينة لتلحق برسول الله ﷺ، وكانت حاملاً، فلم يزل الظالمون يضربون مطيتها ويـــنفرونها حتى سقطت من ظهرها، فأجهضت، فلم يزل بها مرضها هذا حتى توفيت بسببه (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: كتاب النساء، باب الزاي).

فـــالله تعالى يواسي هنا حبيبه ﷺ قائلاً: إن قومك أسوأ من قوم لوط، حيث لم يـــتحلوا بالمروءة مثل قومه، بل قد آذوك في بناتك وسوف يؤذونك بسببهن في المستقبل أيضًا – مع العلم أن هذه السورة مكية وحادث السيدة زينب – رضي الله عـــنها – وقع بعد الهجرة – ونحلف بحياتك أنهم في غوايتهم يعمهون، ونقدم حياتك شهادة على غوايتهم هذه.. بمعنى أنك لم تؤذهم أبدًا حتى يثوروا عليك، بـــل لم تُرد لهم إلا الخير والنصح دائمًا، مما يشكل برهانًا ساطعًا على أن العداوة قـــد أعمتهم، وأنهم محرومون كلية من خشية الله وتقواه. فما دمنا قد عاقبنا قوم لوط على جريمتهم، أفلا نعاقب هؤلاء الأشقياء وجرائمُهم أبشع وأفظع؟

وعلاقة هذه الآية بموضوع السورة تتمثل في أن الله قد قال لرسوله هنا: لقد بلغ اللؤم بالكفار درجة أنهم يلجأون إلى هذه المكائد السخيفة للتشكيك فيما نـــزل عليك من الوحي، وكأن اضطهادهم لبناتك دليل – في زعمهم – على كذبك؛ ولكن الأمور تُعرف بخواتيمها، ولسوف نستأصل شأفتهم في يوم من الأيام حماية

لوحيـــنا وحفاظًا على شرفه، وسوف ننتقم منهم توطيدًا لكرامتك. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارِكْ وسلِّمْ إنك حميد مجيد. فدتك نفسي وروحي يا محمد. قد أُذويتَ كثيرًا في سبيل إعلاء كلمة الله. رفع الله شأنك، وأحيا ذكرك إلى أبد الآباد!

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

الصيحة: العذابُ؛ الغارةُ إذا فوجئ الحي بها (الأقرب).

مُشرِقِين: أشرقت الشمسُ: طلَعتْ؛ أضاءتْ؛ وقيل: شرَقت الشمسُ: طلَعتْ، وأشـــرقت: أضاءتْ وصَفَا شعاعُها. وأشرقت الأرضُ: أنارتْ بإشراق الشمس. وأشرق الرجلُ: دخَل في شروق الشمس (الأقرب).

التفســـير: لقـــد قيل من قبل: ﴿مصبحين﴾، وأما الآن فقيل: ﴿مشرقين﴾؛ مما يوهـــم، لأول وهلـــة، أن هناك تعارضًا في الكلام، ولكن ليس ثمة تعارض، لأن الصبح يكون من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، كما يُطلَق الصبح على أول النهار أيضًا؛ وبما أن العذاب حل بالقوم وقتَ الإشراق (انظر تكوين ١٩: ١٥ – ٢٣)، فلا بأس من استخدام كلتا الكلمتين: مصبحين ومشرقين.

فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيل ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

أَمطَرْنا: أَمطرت السماءُ: مطَرتْ. وقيل: مطَرَ في الخير والرحمة، وأمْطَرَ في الشر والعذاب (الأقرب).

سِـــجِّيل: ســـجَل به سَجْلاً: رمى به مِن فَوق. وسجَل الماءَ: صبَّه. والسِّجِّيل:

حجـــارة كـــالمَدَر؛ قيل معرَّب (الأقرب). ولكن كما بينتُ من قبل- في تفسير ســـورة الـــرعد الآية ١٩ كلمة "جهنم"، وتفسير سورة إبراهيم الآية ٣٦ كلمة "صـــنم"- أنه من الخطأ القول عن الكلمات التي تُستخدم مادتها أو مشتقاتها في اللغة العربية أنها معرَّبة.

التفســـير: كما أن قوم لوط عليه السلام قلبوا الموازين حيث رضوا بالرذائل مُعرِضين عـــن الأخلاق السامية.. كذلك قلب الله عز وجل مدينتهم رأسًا على عقب، وجعل عاليَها سافِلَها، وكأنه قال: حسنًا، فلتكونوا من الأسفلين المنحطين للأبد.

وقال البعض: كيف نـــزلت الحجارة مطرًا عليهم؟ والجواب أن الزلزال العنيف في بعض الأحيان يجعل قطعًا من الأرض تتطاير في الهواء، وهذا ما حدث معهم، حيث تطايرت الأحجار بزلزال عنيف مدمر، ثم عادت وسقطت عليهم كالمطر.

وقد يكون المعنى أن جدران بيوتهم سقطت عليهم كمطر من الأحجار. ويبدو أن القوم كانوا يبنون بيوتهم من الحجر والطين، لأن السِّجّيل يعني حَجرًا مخلوطًا به الطين.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

المتوسِّمين: تَوسَّمَ الشيءَ: تخيَّلَه وتفرَّسَه؛ طَلَبَ وَسْمَه أي علامتَه؛ تَعرَّفَه، يقال: توسّمتُ فيه الخيرَ أي تبيّنتُ فيه أثرَه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن في هذا الحادث لآياتٍ لأصحاب العقل والفراسة، حيـــث يمكن لهم أن يدركوا أن هناك تشابهًا بين حادث لوط عليه السلام وما يحدث بمحمد ﷺ، وأن الله تعالى سوف يدمر أعداء نبيه كما دمر قوم لوط.

لا شك أنه لم يقع هناك أي زلزال لجعلِ أعداء سيدنا محمد ﷺ عبرة وآية، بيد أنهـــم أُمطِـــروا الحجارة يوم بدر، حيث هبّت ريح عاصف، وتطايرت الرمال

والحصى، ووقعت في أعين الكفار، فلم يستطيعوا إصابة الهدف بدقة أثناء القتال. (شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية: باب غزوة بدر العظمى، ودلائل النبوة للبيهقي: باب التقى الجمعان)

كما أن الله تعالى جعل عاليَ مكة سافلَها بشكل معنوي أيضًا، حيث جعَل علْيَةَ أهلِها أدانيَها، وأصاغرَها أكابرَها، وذلك حين أهلَكَ زعماءَهم كأبي جهل وعتبةَ وشيبةَ مع عائلاتهم، بينما آتى الحكمَ والمُلك المستضعَفين كأبي بكر وعمر وغيرهما. ولقد وقع في عهد خلافة سيدنا عمر حادث عجيب يرسم لنا مشهدَ جعلِ الأصاغر أكابرَ والعكس كذلك. ذات مرة كان عمر رضي الله عنه في مكة في موسم الحج، فجاء عليةُ قريش لزيارته، وكان عنده بعض الصحابة الذين كانوا عبيدًا في الماضي، فقرّبهم عمر في المجلس وأخّر أكابرَ مكة هؤلاء. ولما خرجوا من عنده قال بعضهم لبعض: لم نر مثلَ اليوم قط، فإن عمر قد أهاننا. فقال أحدهم لزملائه: الذنب ذنبنا، ففي الوقت الذي كان آباؤنا لا يألون جهدًا في معارضة النبي ﷺ كان هؤلاء القوم يبذلون له كل غال ورخيص. أفليسوا أولى وأحقَّ منا بالتكريم اليوم؟ (سيرة عمر لابن الجوزي: الباب الثامن والثلاثون، في ذكر عدله في رعيته)

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

سبيل مقيم: أي طريق بيّن واضح. (التاج)

التفسير: يقول الله تعالى إن هذه القرى المدمرة تقع بالقرب من الطريق الذي لم تندثر معالمه بعد، بل ما زالت تمر به قوافلكم التجارية أيها الكافرون، ومع ذلك لا تعتبرون بمصيرهم. وبالفعل تقع منطقة قوم لوط عليه السلام قريبًا من الطريق المؤدي من الجزيرة العربية إلى الشام.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى هنا ﴿آية للمؤمنين﴾، بينما قال في الآية قبل الماضية ﴿لآيَات لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، لماذا هذا الفرق يا تُرى؟

فلـــيكن واضحًا أنه تعالى بيّن في الآية السابقة أن هناك تشابهًا بين حادثة لوط وبين ما يقع بمحمد، والواضح أن إدراك هذا التشابه ليس بوسع كل إنسان، وإنما يـــتمكن من ذلك المتفرسون فقط، فلذلك قال هناك: ﴿آياتٍ للمتوسمين﴾.. أي فيه آيات لذوي الفراسة الثاقبة. وأما اتخاذ العبرة بالمرور بالقرب من قرية دمرها الله بعذابه فلا يتطلب من الإنسان ذكاءً غير عادي، بل خشيةَ الله فقط، ولذلك قال الله ﷻ هنا ﴿آية للمؤمنين﴾.. أي أن المؤمنين سيجدون في هذا آيةً.

وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

الأَيْكَـــة: الأَيـــكُ: الشجر الكثير الملتفّ؛ وقيل: الغَيضةُ تُنبت السِّدْرَ والأراكَ ونحوهما، والواحد أيكة (الأقرب).

التفســـير: يبدو أنه كان على مقربة من "مدين" غابةٌ كثيفة تكثر فيها أشجار السِّدر والأراك، ومن أجل هذا سمِّي سكانها بأصحاب الأيكة؛ والأغلب أن هذا الاسم أُطلق عليهم من قِبل العرب الذين كانت قوافلهم التجارية تمر بهذه الغابة، وقد استخدم القرآن نفس الاسم المعروف لدى العرب إتمامًا للحجة عليهم.

والثابت من القرآن أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، قال الله ﴿كذَّب أصحابُ الأَيْكةِ المرسَلين۞ إذْ قال لهم شعيبٌ ألا تتَّقون۞ إني لكم رسول أَمين ﴾(الشـــعراء: ١٧٧- ١٧٩). وفي موضع آخر أخبر القرآن أن شعيبًا أُرسل إلى قـــوم مدين إذ قال ﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهم شعيبًا﴾(هود: ٨٥). فهل يا تُرى كان ثمة

نبيان باسم شعيب، أم أن شعيبًا بُعث إلى الشعبين: أصحاب الأيكة وأهل مدين؟

إن بحثي في هذا الصدد يكشف أنهما قبيلتان من نسل واحد. فمنهم من عاشوا على تجارة السلع المنتجة في المدن، ومنهم من عاشوا على تجارة السلع القروية من لبن وزبد وصوف. وهذا الواقع يمكن أن يشاهَد بكثرة في المدن الواقعة على مقربة من البراري والغابات.

لكن، هل كان بالفعل بالقرب من "مدين" غابة فيها السدر والأراك؟ هذا أمر لا يمكن الجزم به بناء على القياس، ولكن الجغرافيين قد أكدوا هذا الأمر؛ فقد كتب الشيخ سليمان الندوي – نقلاً عن "المناجم الذهبية بمدين" للمستشرق برتن – أن أحد الجغرافيين اليونان يذكر "أنه وراء خليج عيلانه (أي العقبة) الذي يقيم حوله العرب الأنباط يوجد بلد باسم بوتيمانوس (بنو تيمن)، أرضه واسعة مسطحة وذات مياه، وليس بها إلا الأعشاب أو الأشجار التي تبلغ قامة الإنسان، والتي تعيش عليها قطعان من الإبل الوحشية والظبي والأيل، كما تتغذى بها الحيوانات الداجنة من ماعز وضأن. ولكن إلى جانب هذه النِعم يوجد فيها الأسود والذئاب مما انقلبت به نِعم أهل المنطقة نِقمًا. (أرض القرآن ج ٢ ص ٢٣-٢٤).

وهذا يعني أن "مدين" كانت تقع على رأس خليج العقبة، وكانت بالقرب منها غابة تتميز بالمواصفات التالية: ١- تكثر بها الأشجار التي تبلغ طول الإنسان، علمًا أن شجر السدر البري والأراك يبلغ هذا القدر من الطول. ٢- بها قطعان من الإبل الوحشية، وهذا يؤكد وجود شجر السدر والأراك بها، لأن الإبل تعيش على أشجار كهذه. ٣- بها قطعانٌ من المواشي والضأن، مما يعني أن أهل هذه المدينة كانوا يربّون الحيوانات الداجنة التي كانت ترعى في هذه الغابة نفسها.

وهذه المدينة – التي كانت تقع على رأس هذه الأيكة أي الغابة – سُمّيت باسم هذه القبيلة القاطنة بها. فكان هناك مدينة باسم مدين، كما كان هناك قبيلة بالاسم نفسه؛ وقد استخدم القرآن الكريم هذه الكلمة بكلا المعنيين، فقال مشيرًا

إلى قوم مدين ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾(هود: ٨٥)، وقال مشيرًا إلى مكانهم ﴿وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾(التوبة: ٧٠).. أي ألم يأتهم خبرُ أهل مدين وخبرُ القرى التي جعل الله عاليَها سافلَها.. أي قوم لوط؟

ومدين هؤلاء كانوا من نسل إبراهيم عليه السلام حيث ورد في التوراة: "وعاد إبراهيم فأخذ زوجةً اسمها قَطورةُ. فولدت له زِمْرانَ ويَقْشانَ ومَدانَ ومِدْيانَ ويشْباقَ وشُوحًا. وولد يَقْشانُ شَبا ودَدَانَ. وكان بنو ددانَ أشُّوريمَ ولَطُوشيمَ ولَأُمِّيمَ. وبنو مِديانَ عَيْفةُ وعِفْرُ وحَنُوكُ وأَبِيدَاعُ وأَلْدَعَةُ. جميعُ هؤلاء بنو قَطورةَ (تكوين ٢٥: ١- ٤).

يتضح من هذه العبارة أن مدين كان ابنًا لإبراهيم من بطن زوجته قطورة. وبما أن التوراة لم تذكر إلا أولاد يقشان ومديان فيبدو أن الآخرين لم يُرزقوا ذرية أو أن ذريتهم لم يُكتب لهم الازدهار، بل انصهروا في أولاد الآخرين. وأما يقشان فإن نسل ابنه ددان أيضًا كثروا وصاروا قبيلة، ولكنهم عاشوا مع نسل مِديان، حيث يرى صاحب "أرض القرآن" أن أصحاب الأيكة هم من نسل ددان القاطنين مع بني مدين في منطقة الأيكة نفسها، وكأن الجميع كانوا قبيلة واحدة. (أرض القرآن ج ٢ ص ٢١ و١٧٧)

وعندي فإن هذا الرأي ذو ثقل ومنطق شريطة أن نقول إن القبيلتين كانتا تعيشان كقبيلة واحدة حيث كانت عاداتهما وأساليب حياتهما ذات طابع واحد. كان الجميع يمارسون التجارة كما كانوا يرعون المواشي، لا أن إحدى القبيلتين كانت تمارس التجارة بينما كانت الأخرى تعيش في البادية على رعي الماشية وتربية الحيوانات الداجنة ، فهذا خلاف لبيان القرآن الكريم.

على كل، فإن أصحاب الأيكة كانوا في الواقع بني قطورة من نسل أبيهم إبراهيم. ويتضح من التوراة أن هؤلاء القوم انصهروا في بني إسماعيل في آخر المطاف، إذ ورد فيها في صدد قصة يوسف أن فوطيفار من مصر اشتراه من قافلة المديانيين، بينما ورد في موضع آخر من التوراة نفسها أنه اشتراه من قافلة

الإسماعيليين (تكوين ٣٧: ٣٦ و٣٩: ١)، وهذا يؤكد أن بني مدين كانوا قد انصهروا في بني إسماعيل قبل زمن موسى، ومن أجل ذلك كان القوم يُدعَون مديانيين تارة وإسماعيليين تارة أخرى.

وهذا الرأي يدعمه القرآن الكريم أيضًا حيث يدين أهلَ مدين بما يدين به أصحاب الأيكة أيضًا، إذ نجد سيدنا شعيبًا ينصح هؤلاء بقولـه ﴿فأَوفُوا الكَيلَ والميزانَ ولا تَبخَسـوا الناسَ أشياءَهم ولا تُفسدوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها﴾(الأعراف: ٨٦). ونفـس هـذه النصيحة قد وجّهها شعيب إلى أصحاب الأيكة أيضًا فقال ﴿أَوفُوا الكَيلَ ولا تكونوا مِن المُخْسِرين۝ وزِنُوا بالقِسطاسِ المُستقيمِ۝ ولا تَبخَسوا الناسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدين﴾(الشعراء:١٨٢- ١٨٤).

فتـبين مـن هذا أن أهل مدين وأصحاب الأيكة كانوا منغمسين في مساوئ متشابهة، وكانوا يعيشون أساسًا على التجارة التي كانوا يغشّون فيها كثيرًا.

أمـا لـو ظننا أن بني مدين كانوا يسكنون في بلدهم "مدين"، بينما كان بنو ددان يقـيمون في الـبادية في أيكـتهم.. لاستلزم ذلك القولَ أن الأولين كانوا يمارسون التجارة، في حين كان أصحاب الأيكة يعيشون على تربية المواشي. ولكن هذا الرأي مخـالف لبـيان القـرآن الكريم الذي ينصّ أن أصحاب الأيكة أيضًا كانوا يمارسون التجارة التي غشوا فيها الناسَ. فالحق أن الاسمين هما لشعب واحد ذي مَدَنية واحدة، وهم بنو قطورة. وقد أُطلق عليهم هذان اللقبان لكونهما صفتين بارزتين فيهم.

فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

إمـام مبين: الإمام: الطريقُ الواسع، وبه فُسّر قوله تعالى ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي بطـريق يُـؤَمُّ أي يُقصَـد. وقال الفراء: أي في طريق لهم يمرّون عليها في أسفارهم، فجعل الطريق إمامًا لأنه يُتّبع (التاج).

التفسير: كان مسكن أصحاب الأيكة أو أصحاب مدين على مقربة من الطريق المؤدي إلى الشام ومصر، وكانت القوافل العربية تمر به. وقد وُصف هذا الطريق بـــ "المبين" إشارةً إلى كونه يُستخدم بكثرة، لأن الطرق التي يكثر فيها السير تكون واضحة المعالم.

وقـــد تحـــدث الله ﷻ هنا عن هؤلاء القوم ليضرب مثالاً آخر على أن الذين يقومون بـــ"استراق السمع" يُهلَكون في آخر الأمر ويبادون.

هذا، وقد سبق أن وصف الله ﷻ موطنَ قوم لوط بقوله ﴿وإنها لَبسبيلٍ مُقيمٍ﴾، بينما قال الآن في وصف مسكن أصحاب الأيكة: ﴿وإنهما لَبإمامٍ مبينٍ﴾؟ ذلك ليشـــير إلى أن الطريق المار بالقرب من قرى قوم لوط عليه السلام سوف يبقى مطروقًا عـــلى مـــر الأيام، وأما الطريق الذي يمر بمسكن أصحاب الأيكة فسوف يصبح مـــتروكًا، غير أن معالمه سوف تظل محفوظة ملحوظة. والواقع أيضًا يصدّق هذا البيان القرآني.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

الحجـــر: هو الحصن؛ ديار ثمود (الأقرب). والحِجر والتحجير: أن يُجعَل حول المكان حجارةٌ. وسُمّي ما أُحيطَ به الحجارة حِجرًا (المفردات).

التفســـير: وليكن معلومًا أنه بدايةً من هذه الآية وحتى قوله ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ في السورة التالية.. قد ذكر الله ﷻ معارفَ عظيمة وأنباءً هامة جدًّا.

والحِجر هو المكان أو الحصن أو المدينة التي تحاط بسورٌ من الحجارة. وأصحاب الحِجـــر هـــم ثمود قوم صالح عليه السلام. وقد سُمّوا بهذا اللقب لأن مدينتهم كانت محصنة بجدران متينة، وقد استُخدمت الأحجار بكثرة في بنائها.

ورُوي "أن رسول الله ﷺ لما نـــزل الحِجْرَ في غزوة تبوك أَمَرَهم ألا يشرَبوا من بـــئرها ولا يستقوا منها" (البخاري: الأنبياء باب قول الله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحًا)، لأن هذه القرية صارت موردًا لعذاب الله ﷻ.

هذا، ويقول الله تعالى هنا إن أهل الحِجر كذّبوا المرسلين، مع أنهم لم يكذِّبوا إلا صالحًا عليه السلام؟! ولقد تكرر هذا التعبير الخاص في سورة الشعراء مرارًا كقول الله تعـــالى ﴿كذَّبتْ قومُ نوحٍ المرسَلين﴾(الآية ١٠٦)، وقولـــه تعالى ﴿كذَّبتْ عادٌ المرسَـــلين﴾(الآية: ١٢٤)، وقوله ﴿كذَّبتْ ثمودُ المرسَلين﴾(الآية: ١٤٢)، وقوله تعـــالى ﴿كذَّبتْ قومُ لوطٍ المرسَلين﴾(الآية:١٦١).. في حين لم يكذّب أي من هـــؤلاء الشعوب إلا نبيهم الخاص الذي أُرسل إليهم. ثم كيف يصح هذا التعبير عـــن قـــوم نوح خاصة الذين لم يُبعث قبلهم رسل كثيرون، إذ يقول نبينا ﷺ: "نوح أول الرسل" (البخاري: التفسير، سورة نوح، باب قول الله ﷻ: ولقد أرسلنا نوحًا).

فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أدانهم الله تعالى بتكذيب الرسل أجمعين مع أنهم لم يرفضوا إلا رسولهم فقط؟

لقد أجاب العلامة أبو حيان على هذا جوابًا لطيفًا حيث قال: "لأن مَن كذّب واحدًا منهم فكأنما كذّبهم جميعًا" (البحر المحيط، قولـــه تعالى: ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسَـــلين). ذلـــك أن الإيمـــان إنما ينفع صاحبَه إذا آمنَ عن روية ودراية، فالذي يصـــدّق نبـــيًّا من الأنبياء عن وعي واقتناع سيصدّق جميعَ الرسل حتمًا إذ لن يصعب عليه معرفة صدقهم، لأن مثله كمثل الذي إذا أكل الشمّام أو المانجو مرة فإنه كلما رأى هذه الفواكه عرف على الفور أن هذا شمام وذلك مانجو. أما إذا رفـــض أحـــدٌ نـــبيَّ زمانه توصلنا إلى نتيجة أنه لو كان في زمن أي من الأنبياء الآخرين لكذّبه حتمًا، لأن أحوال جميع الأنبياء تكون متماثلة.

ورأي أبي حـــيان هذا من الصدق والروعة بمكان، ويمثّل دحضًا لأولئك الذين يـــزعمون أن لا بأس في أن تكذب أمةٌ ما بأحد من الرسل ما دامت هي مؤمنةً

بالرسل السابقين، فإيمانها بهؤلاء الآخرين يكفي لنجاتها؟ كلا، بل الحق أن أصحاب هذا الزعم الباطل غافلون عن حقيقة الإيمان؛ ذلك أن إيمانهم بالرسل الذين خلوا من قبل إنما يكون إيمانًا تقليديًا فارغًا من الوعي والإدراك، إذ لو كان إيمانهم مبنيًّا على وعي ودراية فكيف أمكن لهم أن يكذّبوا بمن جاء متتبعًا خطوات الرسل السابقين، وفي ظروف مماثلة. فثبت أن إيمانهم لا يعدو أن يكون تقليدًا أعمى. وأي شك في أن تسمية مثل هذا الإيمان إيمانًا ظلم عظيم.

وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

معرضين: هو من العَرْض الذي يعني الجانب، يقال: أعرضَ عني: ولّى مبديًا عَرْضَه أي ناحيتَه (المفردات).

التفسير: يقول الله تعالى: لقد أريناهم آياتنا، ولكنهم ولّوا عنها مدبرين، فكيف يصح إذنْ زعمُهم أنهم قد آمنوا أو سيؤمنون برسلنا الآخرين برؤية آيات مماثلة؟

لقد سرد الله ﷻ في الآيات السابقة أحداثَ ثلاثة من الأمم وبالترتيب التالي: قوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح عليهم السلام، ولكن الترتيب الواقعي لعصور هذه الأمم هو الآتي: قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب؟ فلِمَ غيّر الله الترتيبَ الواقعي يا تُرى؟

والجواب هو أن الغرض من سرد أحداث هذه الشعوب أمام المكيين هو تحذيرهم بأنهم يعرفون أحوال هؤلاء الرسل، وكيف أن معارضيهم الذين رفضوا الوحي الذي نزل عليهم أُهلكوا بعد أن أمهلهم الله لفترة من الزمان ليكيدوا كيدًا؛ فلا تفرحوا أيها المكّيون على إنكاركم لما نزل على محمد من الوحي، ولا تظنوا – مغترين بالمهلة التي نمنحكم – أنكم الغالبون ولن تعاقَبوا على جرائمكم. كلا، سوف نعاقبكم عليها حتمًا في الموعد الملائم كما عاقبنا هؤلاء الأمم.

وإقامةً للحجة على أهل مكة كان هناك طريقان لسرد هذه الأحداث. فإما أن تُذكَر وفق بُعد هذه الأمم عن أهل مكة زمانًا، أو وفق بُعدهم عنهم مكانًا. وقد اختار القرآن الطريق الثاني، فسرد أولاً أحوال قوم لوط الذين كانوا أبعد هؤلاء الأمم عن المكيين موطنًا. ثم قص أحداث قوم كانوا أقرب مسكنًا من الأولين وهم قوم شعيب. وأخيرًا ذكّر بما حصل لثمود وهم من سكان الجزيرة العربية، وكأنه قال لأهل مكة: أليس في مصير هؤلاء ما يردعكم عن التكذيب؟

تتحدث هذه السورة عن أولئك الرسل الذين لم يكن في أممهم رواج كثير لفن الكتابة، والذين كان العرب يؤمنون بهم؛ فسيدنا آدم مشترَك بين جميع الشعوب، وأما سيدنا لوط فكان من أقارب سيدنا إبراهيم، وبالتالي كان من أجداد العرب، وأما سيدنا شعيب فكان من بني مدين الذين كانوا أبناء عم بني إسماعيل، بل كانوا قد انصهروا بينهم؛ وأما ثمودُ قومُ صالح فكانوا أيضًا من العرب الأصليين. (مروج الذهب للمسعودي الجزء الثاني، ذكر مكة وأخبارها)

وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

يَنحتون: نَحَتَ الحجرَ سوّاه وأصلَحَه، وفي القرآن ﴿وتنحِتون من الجبال بيوتًا﴾ .. أي تتخذون. ونحَت الجبلَ: حفَره (الأقرب).

بيوتًا: البيوت مفرد البيت وهو المسكنُ، سواء كان من شَعْرٍ أو مَدَرٍ؛ الشرفُ؛ الشريفُ (الأقرب). وقد سُمّي الشريف بيتًا لأن قومه يعيشون تحت ظله. وقد طالعت في أحد كتب التاريخ أبياتًا رائعة جميلة بهذا المعنى. فحينما توفي حضرة جُنيد البغدادي رحمه الله قال أحد الصوفية المجذوبين من بغداد في رثائه حين نظر إلى جثمانه الطاهر:

وأَسَفى من فراق قومٍ هُمُ المصابيحُ والحصونُ
والمُدنُ والمُزن والرواسي والخير والأمن والسكونُ
لم تتغيرْ لنا الليالي حتى توفّتهمُ المُنونُ
فكلُّ جَمْرٍ لنا قلوبٌ وكلُّ ماء لنا العيونُ

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٧ ص ٢٤٩)

لقد بيّن الشاعر هنا بغاية الروعة والجمال أن الأسياد في الروحانية هم بمنزلة الحصون والمدن والسحب والجبال للدنيا، وكأن أهلها يعيشون بسببهم هم.

التفسير: تبيّن هذه الآية أن هؤلاء القوم كانوا يحفرون الجبال ويتخذون فيها بيوتًا لهم، وأنهم كانوا من القوة والمنعة بحيث لم يكن أحد يجترئ على محاربتهم.

يبدو من ذلك أن القوم كانوا ذوي حضارة عالية وثروات طائلة. كانت بلادهم تشتمل على السهول والجبال، وكانوا يتمتعون بالقوة والمنعة بحيث لم يكن يجرؤ أحد على شن الغارة على أرضهم حين كانوا يذهبون في موسم الحر إلى مصايفهم بالجبال للراحة والاستجمام؛ وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿آمنين﴾؛ أو معناه أنهم كانوا يذهبون إلى المناطق الجبلية آمنين لا خوفًا ولا تهربًا من عدو.

علمًا أن نحتهم البيوت في الجبال لا يعني أنه لم يكن لهم بيوت غيرها، وإنما فيه إشارة إلى المباني الخاصة الدالة على حضارتهم الراقية؛ إذ يبدو أن القوم اكتسبوا مهارة عالية في فن البناء والعمارة، وشيّدوا بعض المباني القومية بالحفر في الجبال، على طراز المبنى الشهير باسم "أليفنتا كيوز" في بومباي، فهو قطعة رائعة من فن الحفر الهندوسي، ويزوره السُّيّاح الأجانب بأعداد كبيرة.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

مصبِحين: أصبحَ الرجلُ: دخَل في الصباح. ﴿فأخَذَتْهمُ الصَّيحةُ مُصبِحين﴾ أي

وهم داخلون في الصباح (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن العذاب فاجأهم في الصباح الباكر. ويتضح من آيات أخرى أنهم أُهلكوا بزلزال حيث قال الله تعالى ﴿فأَخَذَتْهمُ الرَّجْفةُ فأصبحوا في دارِهم جاثِمين﴾(الأعراف:٧٩).. أي أنهم دُفنوا تحت أنقاض بيوتهم التي دمرها زلزال عنيف، إذ لم يكن هناك من يخرج جثثهم من تحتها.

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

أغنى عنهم: أغنى عنه: أجزَأه: ما يُغني عنك هذا أي ما يجدي عنك (الأقرب).

يكسبون: كسَب الشيءَ: جمَعه. وكسَب مالاً وعلمًا: طلَبه وربِحه: كسَب الإثمَ: تحمَّله. كسَب لأهله: طلَب المعيشة (الأقرب).

التفسير: أي أنهم كانوا يبنون لحمايتهم مباني ضخمة شاهقة، ولكنها نفسها ضاعفت في عذابهم، لأن المبنى الضخم يكون أكثر عرضة للدمار أثناء الزلزال، إذ لا أمل في نجاة من يُدفَن تحته.

لقد حذّر الله ﷻ هنا مشركي مكة بأنهم يتباهون بكثرة العدة والعتاد، ولكن عليهم أن يتذكّروا أن العذاب حين يحل بقوم فلا تنفعهم أموالهم ولا عتادهم شيئًا، وإنما تصبح عليهم وبالاً، وتزيدهم دمارًا.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

فَاصْفَحْ: صفَح عنه صَفْحًا: أعرضَ عنه وترَكه، وحقيقتُه: ولاّه صفحةَ وجهه؛ صدَّ عنه؛ أعرضَ عن ذنبه. وصفَح الناسَ: نظَر في أحوالهم. وصفَح في الأمر: نظَر فيه. والصَّفْح: الجانب. والصفح من الإنسان: جَنْبُه (الأقرب).

فالمراد من قوله تعالى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجميلَ﴾: ١- أَعرِضْ عن المنكرين فلا حاجة للنقاش والجدال معهم، لأن الحجة قد قامت عليهم؛ ٢- لا حاجة للاتصال بهم؛ ٣- انظُرْ في أحوالهم جيدًا وادْرُسْها بدقة.

التفسير: يقول الله تعالى: تدبروا في نظام الكون لتعرفوا أخُلِق لغاية أم لا؟ فإن كل ذي عقل سليم لو أمعن النظر في هذه الصنعة الكونية لأدرك الغرض من خلق هذا النظام الهائل، وتوصَّل إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها.

واعلم أن الساعة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القيامة وأيضًا بمعنى الموعد المضروب لهلاك معارضي الرسل وغلبة المؤمنين؛ وإن نظام السماوات والأرض يشكل برهانًا على وجود الساعة بالمعنيين. إنه دليل على القيامة، لأننا لو ظننا أن حياة الإنسان ستنتهي في هذه الدنيا ولا حياة له بعد الممات فهذا يعني أن الله تعالى خلق هذا الكون الهائل فقط ليخلق فيه هذا الكائن ليأكل ويشرب بعض الوقت ثم يفنى. وهذا الظن مخالف للعقل السليم بتاتًا، إذ إن خلق هذا النظام الهائل يحتّم أن يكون وراءه غاية كبرى. وهذه الغاية لا تتحقق - فيما يبدو - في حياة الإنسان القصيرة، مما يستلزم ألا تنحصر حياته في الفترة الدنيوية، بل تمتد إلى زمن أطول يحقق فيه غاية عظيمة تليق بهذا النظام الكوني العظيم.

الحق أننا لو تدبرنا في الكون لوجدنا أن أحقر شيء فيه أيضًا – بَلْهَ نظامَ الكون كله– عظيمٌ لدرجة تفوق تصوراتنا، فقد أودع اللهُ ﷻ هذا الشيءَ الحقير أيضًا من الأسرار ما لا نهاية لـــه. خذوا البدن الإنساني مثلاً، فإن نظامه معقد لدرجة أن مـــئات الآلاف مـــن الأطباء وعلماء الأبدان كانوا ولا يزالون عاكفين على معـــرفة كُـــنه الـــبدن الإنساني وحقيقته، ولكنهم اعترفوا بفشلهم إذ لا يجدون لأســـراره نهايـــة. لقـــد حقق أهل أوروبا تقدمًا علميًّا عظيمًا بعد نزول القرآن الكـــريم، ومع ذلك ما استطاعوا أن يحيطوا بأسرار الجسم الإنساني كلها. أفليس من الغباء – والحال هذه – أن يقال عن هذا الكائن الإنساني، الذي تأسس خلقُه على خلقِ هذا الكون الشاسع والمعقَّدِ النُظمِ والقوانينِ بهذا الشكل المحير، أنه أتى الدنيا ليأكل ويشرب لبعض الوقت ثم يفنى للأبد.

كمـــا أن نظـــام الكـــون يمثّل دليلاً على غلبة الأنبياء وهلاك أعدائهم في آخر المطـــاف. ذلك أن الأرض لو فُصلتْ عن السماء لشملها الدمارُ و لم تبق لها من باقـــية. فكأنه تعالى يقول: ما أشدَّ هؤلاء عمايةً وغباءً إذ يظنون أنهم يستطيعون الـــنجاة رغـــم قطعهـــم صلتهم عن السماء الروحانية! الحق أن لا سبيل لنجاة الإنســـان إلا إذا صـــار جزءًا من نظام السماء الروحانية.. شأنَ الأرض التي لا مناص لها من الدمار ما لم تكن مرتبطة بنظام السماء المادية. فالذي يحاول محاربة النظام السماوي الروحاني لن ينجو من الهلاك أبدًا.

فكـــأن الله تعالى يحذّر معارضي النبي ﷺ هنا أنهم قد قطعوا صلتهم عن السماء الروحانـــية، فلن تجديهم الآن أسبابُهم الأرضية المادية شيئًا، بل قد حانت الآن ساعة هلاكِهم وغلبةِ المسلمين.

كم هي صريحة وقويةٌ هذه الآية في تحذيرها لأهل مكة أن هلاكهم أمر محتوم وأنـــه قد اقترب جدًّا. وقد تحقق هذا النبأ بسرعة غريبة حيث حصلت بعد ذلك تقلـــبات سريعة أدت إلى هلاك الكفار المكيين؛ وكانت معجزةً عظيمةً لم يوجد

لهـــا نظير في تاريخ الديانات كلها، لأن هذا الدمار قد حل بهؤلاء جراءَ عدائهم لأكبر نجم بل لأكبر شمس في السماء الروحانية بأسرها ﷺ.

يتضـــح من هذه الآية أيضًا أن الذين قالوا إن سورة الحجر نـــزلت في أواخر الفـــترة المكية كانوا أقرب إلى الصواب، لأن الله تعالى قد ركّز فيها خاصةً على قرب هلاك المكيين، كما أكد ذلك أيضًا في مستهل السورة التالية سورةِ النحل.

وأمـــا قولـــه تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجميلَ﴾ فأخبر فيه ألا حاجة للنقاش معهم الآن، لأن زمن الحوار قـــد ولّى ومضى، وأن السماء قد قضت بعقابهم، فلن يؤمنوا الآن حتى يروا العذاب الأليم.

كمـــا أشار الله تعالى بكلمة ﴿الجميل﴾ أننا لا نعني بذلك أن تُعرض حتى عمن يأتيك راغبًا في الحوار باحثًا عن الحقيقة. فإذا مال البعض إلى حديثك فلا بأس في مداولـــة الرأي معهم، إلا أنه لا داعي الآن للنقاش العام، لأنه قد أُقيمت الحجة علـــيهم وتم الـــبلاغ المـــبين، ولكنهم ما انتفعوا من آيات السماء؛ فانتظرِ الآن مصيرهم.

وهـــذا الأمر يحدث مع كل نبي، حيث لا ينفك في التبليغ مجادلاً أهل الباطل، ولكن بعد فترة معينة ينهاه الله تعالى عن المزيد من الحوار مع أئمة الكفر، وكأنما يقول لـــه: الآن قد تمت الحجة على المنكرين، فدَعْهم وشأنهم.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

الخلاّق: الخالقُ وهو مِن صِيَغِ المبالغة (الأقرب).

التفســـير: لقد أشار الله ﷻ بإيراد صفته ﴿الخلاّق﴾ هنا إلى أنه لا يبالي بدمار أمـــة قضى بهلاكها، لأن هذا لا يغيّر في ملكوته وجبروته شيئًا، فهو قادرٌ تمامًا على أن يخلق أمة أخرى مكان الأمة الفاسدة الهالكة. وقد أكد الله ﷻ هذا المعنى

نفسه في سياق الحديث عن نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وجنوده حيث قال ﴿كذلك وأَورَثْناها قومًا آخَرين * فما بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين﴾(الدخان: ٢٩ و٣٠).. أي أن هلاكهم لم ينقص من ملكوت الله شيئًا حتى يبكي على موتهم أهلُ السماء، كما لم يضر موتهم أهلَ الأرض حتى يتأسفوا عليهم. ذلك أن مناهضي الأنبياء يكونون دائمًا ظالمين، فلا تندب الدنيا على هلاكهم بل تتنفس بموتهم الصعداءَ وتنعم بالراحة.

وقد ختم الله ﷻ هذه الآية بذكر صفته ﴿العليم﴾، ليُخبر أنه على علم بنوعية النظام الجديد الذي سيأتي به بعد إهلاك هؤلاء الظالمين. إنه نظام رائع وجميل لدرجة أن العالم سوف يفرح بموت هؤلاء بدلاً من أن يبكي عليهم.

ما أدلَّ هذه الآيةَ على بلاغة القرآن الكريم حيث بيّن كل هذه المفاهيم الواسعة في كلمة وجيزة، وأشار بمنتهى الروعة إلى سمو نظام حكومة المسلمين. كما بين هذه المعارف بترتيب رائع، حيث أعلن في مستهل هذه السورة ﴿ذَرْهم يأكُلوا ويتمتَّعوا ويُلْهِهِمُ الأمَلُ فسوف يعلَمون﴾(الآية:٤)، بينما أعلن في هذه الآية التي نحن في صدد تفسيرها: ها قد جاءت الآن ساعة هلاكهم، وانتهى زمن انغماسهم في الملذات وطول الآمال. وقد بيّن هذا المعنى بقوة تماثل قوة الماء المقترب من الشلال.

كما أن هذه الآية ردٌّ على الذين استبعدوا انتصار النبي ﷺ لافتقاره إلى الأسباب اللازمة قائلين: بماذا سيحقّق محمد الغلبةَ؟ فنبّهتهم أن الله ﷻ خلاّق، وسيخلق أسباب غلبة المسلمين حين يقضي بهلاك الكفار.

وتحقيقًا لهذا النبأ رغّب الله ﷻ بعضَ الحجاج من أهل المدينة في لقاء النبي ﷺ وسماع دعوته، فلما رجعوا إلى قومهم حكوا لهم ما رأوا، فأرسلوا إليه ﷺ وفدًا يلتمسون منه أن يهاجر من مكة إلى بلدهم، فقَبِلَ دعوتهم بإذن من الله وهاجَرَ (السيرة النبوية لابن هشام: أمرُ العقبة الثانية). وما هي إلا أيام قلائل حتى أصبح هذا الذي كان لا يجد ملاذًا في مكة مؤسسَ دولة قوية، وتيسرت له ﷺ

الأسباب المادية أيضًا التي بسبب افتقاره إليها كان أهل مكة متأكدين من انتصارهم عليه. ولما وقع هذا التغير العظيم وقف أهلُ مكة حيارى منبهرين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

المَثاني: هي: آياتُ القرآن؛ والمثاني من الوادي: مَعاطِفُه. مَثْنَى الأيادي: إعادةُ المعروف مرتين فأكثر. ومثاني الشيءِ: قُواه وطاقاته (الأقرب).

وقال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس أيضًا والحسن وأبو العالية وابن مليكة وعبيد بن عمير وجماعةٌ إن سبعًا من المثاني هنا هي آيات الحمد أي سورة الفاتحة. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنها (أي الفاتحة) السبعُ المثاني وأُمُّ القرآن وفاتحة الكتاب. وسُميت بذلك لأنها تُثنَّى في كل ركعة. وقيل: لأنها يُثْنَى بها على الله تعالى. وقد جوّز الزجّاج هذا المعنى، ولكن قال ابن عطية: في هذا القول من جهة التصريف نظرٌ. وقد علّق العلامة أبو حيان على ذلك بقوله: لا نظر في ذلك، لأنها جمعُ مُثْنَى وهو مُفْعَل من أَثْنَى، والمُثْنَى هو مَقَرُّ الثناء على الله تعالى.. أي فيها (أي الفاتحة) ثناء على الله ﷻ. (تفسير البحر المحيط).

فالمراد من السبْع الْمَثاني هو الآيات السبع التي تتكرر مرة بعد أخرى، أو التي يُثنىَ بها على الله تعالى ثناءً كاملاً.

التفسير: يقول الله تعالى لرسوله: إن هؤلاء القوم سيهلكون قريبًا ليأخذ مكانهم المؤمنون، فبدلاً من تبديد جهودك في الجدال مع هؤلاء المتعنتين.. عليك أن تركّز معظم جهودك على المؤمنين لتعليمهم القرآن الكريم حتى يتعلموا المعارف القرآنية جيدًا، فيكونوا أهلاً لتحمل المسئولية التي ستُلقى على عواتقهم في زمن غلبتهم الموشكة، ويكونوا جاهزين لإدارة النظام الجديد. فقد آتيناك نعمة عظيمة

كالقـــرآن العظـــيم إلى جانب الفاتحة التي هي سبع آيات ومثاني أيضًا، فعليك بتربيتهم بحيث ينتفعون بهذه النعمة العظيمة كما ينبغي.

لقـــد بينتُ في شرح الكلمات أن من معاني المثاني قُوى الشيء وطاقاته، وعليه فقـــد أشـــار الله ﷻ بتســـمية الفاتحة بالسبع المثاني إلى أنها قوام طاقات القرآن وخلاصته أي أن الفاتحة، رغم إيجازها الشديد، تحوي خلاصة المعارف القرآنية.

وأما قولـــه تعالى ﴿والقرآن العظيم﴾ فقد يعني باقي القرآن الكريم، والمراد أننا آتيناك القرآن المختصر وكذلك القرآن المفصل.

وقد يراد بالقرآن العظيم هنا جزءًا منه، وذلك وفق عادة العرب في إطلاق الكل على البعض، حيث يقولون: أَسْمِعْني القرآن، ولا يقصدون به كل القرآن طبعًا، بـــل شيئًا منه. وعليه فقد يكون المراد من القرآن العظيم هنا سورة الفاتحة نفسها إشارةً إلى كونها جزءًا هامًّا من القرآن الكريم.

وهذا المعنى يمثّل دحضًا لزعم البعض أن الفاتحة ليست جزءًا من القرآن الكريم. لقد صرّح الحديث الشريف أيضًا أن الفاتحة هي القرآن العظيم حيث ورد: "عن أبي هريـــرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم." (مسند أحمد ج ٢ مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

ولكن هذا لا يعني أن "القرآن العظيم" ليس اسمًا لباقي القرآن، بل يمكن إطلاق هذه التسمية على الفاتحة وباقي القرآن في وقت واحد، إذ لا منافاةَ ولا تعارُضَ بينهما، والمعنى أننا آتيناك قرآنًا مختصرًا إلى جانب قرآن مفصل.

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

لا تَـــمُدَّنَّ: مدَّ نَظَرَه إليه: طمَح ببصره إليه (الأقرب).

التفسير: لقد قال بعض المفسرين: جاءت إلى المدينة مرةً سبعُ قوافل من بُصرى وأذْرِعات ليهودِ قريظةَ والنضيرِ في يوم واحد، فيها البُرُّ والطِّيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّيْنا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله ﴿ولقد آتيناكَ سَبْعًا مِن المَثاني والقرآنَ العظيمَ﴾. (تفسير القرطبي)

ولكن هذا التفسير باطل، والدليل الأكيد على زيفه وبطلانه أن سورة الحِجر هذه مكية كلها بإجماع سائر المفسرين، حتى إن المستشرقين المسيحيين أنفسهم لم يجدوا بدًّا من الاتفاق مع هذا الرأي (تفسير القرآن لـِ "ويري"، وترجمة القرآن لرودويل). إن المسلمين لم يروا رخاء هذه القبائل اليهودية القاطنة بالمدينة المنورة إلا بعد هجرتهم إليها من مكة، فكيف يمكن أن يُذكَر في السورة المكية ما وقع في المدينة بعد الهجرة؟

ويجب أن نتذكر أيضًا أن الخطاب هنا موجه إلى الرسول ﷺ دون الصحابة، وأرى أن نسبة مثل هذا المفهوم الخطير إليه ﷺ لا يجوز بحال من الأحوال، بل هو إساءة بشعة في حقه ﷺ. مع الأخذ في الاعتبار أن المحور الأساسي لهذه السورة هو تأكيد الله تعالى لرسوله بكل قوة وتكرار: إننا نحن الذين سوف نهيئ الظروف والأسباب لرقي المسلمين، فتوكَّلْ علينا دائمًا؛ فكيف يمكن – رغم هذا التأكيد الإلهي المتكرر – أن تتولد هذه الفكرة الدنيئة في قلب الرسول ﷺ فيقول: يا ليت كانت عندنا أيضًا أموال كما عند اليهود.

الواقع أن قوله تعالى ﴿وإن الساعة لآتية﴾ تضمَّن الإشارة إلى سقوط حكم الكفار عاجلاً، وكان هذا الخبر يمثّل صدمة طبيعية للنبي ﷺ إذ كان يحمل بين جنبيه قلبًا رقيقًا شفيقًا مفعمًا بالنصح لقومه، فلا بد أن يكون قد فكّر أن قومه أو الصناديد منهم سوف يُهلَكون محرومين من الإيمان، وبالتالي لا بد أن يكون متأسفًا عليهم قائلاً: ليتهم لم يهلكوا، وليت الله جعلهم كبارًا في الدين كما جعلهم كبارًا في الدنيا. وهذه أمنية نبيلة للغاية، والحق أن أنبياء الله تعالى لا

يفرحون في الواقع بهلاك أحد من أعدائهم، بل يتمنون أن يكون الجميع مؤمنين. وقد اشتدت هذه الرغبة بالنبي ﷺ بحيث كاد يُهلك نفسه أسفًا عليهم حتى خاطبه الله قائلاً: ﴿لعلّكَ باخعٌ نفسَكَ ألا يكونوا مؤمنين﴾(الشعراء:٤). فنظرًا إلى أحاسيسه المرهفة خفّف الله عنه قائلاً: لا شك أن خبر هلاكهم شاقٌّ عليك، ولكن هذا هو القرار الملائم في شأنهم، فلا تتأسف على أئمة الكفر هؤلاء طامعًا في إسلامهم نظرًا إلى مكانتهم العالية، لأن أموالهم وشوكتهم الدنيوية لا تزيدهم في التقوى بل تحول دون إحرازها، لذلك سوف نجعلهم أقزامًا صاغرين بل سوف نستأصل شأفتهم. فبدلاً من الطمع في إيمان هؤلاء وَجِّهْ عنايتك إلى تربية المؤمنين الذين سيأخذون مكان الذاهبين، لأن رقي العالم ليس منوطًا الآن بنجاة السادة القدامى، وإنما يتوقف على تربية أتباعك تربية سليمة.

وهذا المعنى الذي قد بينته تدعمه أيضًا الجملةُ التالية في الآية ﴿ولا تحزَنْ عليهم﴾ .. أي لا تحزن على هلاكهم، ولكن لو أخذنا برأي المفسرين بألا تنظر إلى اليهود طامعًا في أموالهم، فلا ينسجم معه إطلاقًا قولُه: ﴿ولا تحزَنْ عليهم﴾؛ بل يصبح الكلام عندئذ لغوًا والسياقُ غير منسجم، ويحدث التعارض بين الجملتين، إذ كيف يمكن لمن يريد الاستيلاء على أموال الآخرين أن يتأسف على هلاكهم، لأن أمنيته هذه تمثّل في الواقع دعاءً عليهم بالهلاك. ولكن لدى قبول المعنى الذي بيّنتُه لا يحدث أي خلل في المفهوم ولا في السياق.

كما أن قوله تعالى ﴿واخْفِضْ جَناحَك للمؤمنين﴾ أيضًا يؤكد موقفي، لأننا لو أخذنا برأي المفسرين لصار مفهوم الآية هكذا: لا تتمنَّ أن تصير أموال الكفار في حوزتك، ولا تتأسف على هلاكهم، بل وجّه اهتمامك إلى المؤمنين؛ وهكذا ستصبح كل جملة من الآية غير منسجمة مع الأخرى ومتعارضةً مع السياق.

ويبدو أن قوله تعالى ﴿واخفِضْ جناحَك للمؤمنين﴾ كان ينطوي على إيماءة لطيفة إلى هجرة المسلمين. ذلك أن خفض الجناح للمؤمنين – أي تربيتهم وتوعيتهم بشكل كامل – كان يتطلب نظامًا، وكان من المستحيل في مكة

العمـــلُ بأحكام القرآن المتعلقة بالنظام. إذن فقوله تعالى لرسوله بأن عليك الآن توعية المسلمين حتى يكونوا جاهزين لإدارة النظام القادم كان يحمل في طيّاته نبأً للرسول ﷺ بأن الله تعالى سوف يذهب بك إلى حيث تتمكن من تربية أتباعك كما ينبغي.

وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٠﴾

التفســـير: أي أَعلِنْ للكفار بأنني أنا الذي عهد الله إليه الإنذارَ والتحذير، وها إني أقولها علنًا بأمر من الله تعالى أن ساعة هلاككم قد اقتربت وحانت.

كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

المقتســـمين: اقتسَـــموا المالَ بينهم: أخَذ كلٌّ قسمَه (الأقرب). وتقاسَمَا المالَ: اقتسماه بينهما. فالاقتسام والتقاسم بمعنى واحد (التاج).

التفســـير: لقد فسّر عامة المفسرين هذه الآية مع التي قبلها بأني أنا النذير المبين بالعذاب مثلما أنـــزلناه على المقتسِمين (تفسير الرازي). ولكني أرى أن ﴿كما﴾ هـــنا تعليلـــية وليست لبيان المماثلة. وورود (كما) من أجل التعليل ثابت عن العـــرب (انظر "تاج العروس")، ووردت في القرآن الكريم أيضًا بهذا المعنى مرارًا كقولـــه تعالى ﴿واذكروه كما هداكم﴾(البقرة: ١٩٩).. أي اذكروا الله تعالى لأنـــه هداكـــم. وعليه فقوله تعالى ﴿وقُلْ إني أنا النذير المبين كما أنـــزلنا على المقتسمين﴾.. يعني: قُلْ لهم يا محمد: إني أنا النذير الذي لا خفاء في تحذيره، لأن الله تعـــالى قـــد قرّر الآن إنزال العذاب على المقتسمين. ولا شك أن هذا المعنى واضـــح جـــلي لا لبس فيه، ولكن المفهوم الذي يذكره المفسرون الآخرون غير

واضـــح، ولذلـــك قـــد واجهوا صعوبة كبيرة في شرح هذه الآية، ولجأوا إلى تأويلات كثيرة.

كمـــا أن المفســـرين قد عانوا في تفسير كلمة ﴿المقتسمين﴾ عناءً كبيرًا، حيث فســـروا ﴿المقتسِمين﴾ بمعنى الحالفين بإيذاء النبي ﷺ (الكَشاف؛ والقرطبي). كما ورد هـــذا المعـــنى في الـــبخاري أيضًا (انظر البخاري: كتاب التفسير). ولكن الاقتســـام لا يعـــني القَسَم لغةً، بل يعني التقسيم، كما سبق أن أثبتنا لدى شرح الكلمات.

وهنا ينشأ سؤال: كيف وقع المفسرون في هذا الخطأ؟ والجواب أن هناك كلمة أخـــرى هـــي التقاسم، وعندما قرءوا قول أهل اللغة إن التقاسم والاقتسام بمعنى واحد حيث يقال تقاسما المال أي اقتسماه بينهما.. ظنوا خطأً أن الاقتسام أيضًا يعني القَسم والحلف، مع أنه لا يعني إلا التقسيم فقط، على عكس التقاسم الذي يعـــني المعنـــيين أي التقســـيم والقَسم. وقد انخدع بهذا التشابه حتى عالم كبير كالزمخشري أيضًا.

ولقـــد ارتكب صاحب تاج العروس في هذا الصدد خطأً آخر حيث استشهد عـــلى هذا المعنى الخاطئ بقول ابن عرفة القائل: "هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد الرسول ﷺ" (التاج). والظاهر أن هذا المعنى لا سند له من اللغة، وإنما نقله صاحب التاج بتأثير المفسرين.

بعد هذا البيان التمهيدي أقول: إن المقتسمين المذكورين هنا هم أولئك الكفار الذين كانوا قسَموا فيما بينهم أعمال المكر والكيد بالرسول ﷺ؛ فمنهم من أخذ عـــلى عاتقه أن يقف بأنقاب مكة وطرقها ليقول لكل قادم إليها ألا يغترّ بكلام محمـــد، ومنهم من أثار الضجة داخل مكة بأن محمدًا لو كان صادقًا لكنا أَولى بتصديقه لأنه من أقاربنا، ومنهم من آذى المسلمين، ومنهم من تولى التعتيم ضده ﷺ في القـــبائل المجـــاورة لمكة. وقد أعلن الله تعالى هنا أننا قد قررنا الآن عذاب هؤلاء جميعًا.

ومـــن المفســـرين من قال أن هؤلاء المقتسمين هم أولئك الكفار الذين قسَموا القـــرآن فـــيما بينهم.. أي كانوا يؤمنون ببعض القرآن ويكفُرون ببعضه. (فتح البيان، والقرطبي)

ممـــا لا شك فيه أن القرآن الكريم سجّل في موضع آخر قول الكفار عن القرآن الكريم: نؤمن ببعض ونكفُر ببعض، ولكن تفسير هذه الآية بهذا المعنى غير سليم، لأن الاقتسام لا يحتمل معنى الإيمان ببعض والرفض ببعض.

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

جعَلـــوا: مِـــن معـــاني جَعَلَ: ظَنَّ، يقال: جعَل البصرةَ بغداد أي ظنَّها إياها (الأقرب).

عضين: جمعُ عِضة ومعناها القطعة من الشيء والجزءُ منه، وهي مشتقة من عَضَّهَ العضـــاهَ: قطَعـــها؛ وتعني أيضًا الكذبَ من عَضهَ الرجلُ يَعْضَهُ عَضَهًا: كَذَبَ؛ ومشتقة أيضًا من عضا الشيءَ يعضُوه عَضْوًا أي فرَّقه (انظُر الأقرب).

التفســـير: أرى أن المعنى الثاني لـــ ﴿عِضينَ﴾ أي الأكاذيب هو الأكثر انطباقًا هـــنا، لأن كلمة ﴿جعلوا﴾ هنا تعني (ظنّوا)، فالمراد من هذه الآية مع ما قبلها: أَنْـــذِر الذيـــن اقتسموا فيما بينهم أعمالَ الفتنة والشغب ضدك والذين اعتبروا القرآن الكريم مجموعة من الأكاذيب بأنه قد حانت ساعة عذابهم.

وهذا المعنى واضح جلي بحيث يخلّصنا من كل المشاكل التي واجهت المفسرين.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿لَنسألنّهم﴾ أن الله تعالى سيحاسبهم الآن على شرورهم ويعاقبهم عقابًا شديدًا.

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

شرح الكلمات:

فاصدَعْ: صدَعه صَدْعًا: شقَّه؛ وقيل: شقَّه بنصفين؛ وقيل: شقَّه ولم يفترق. صدَع الأمرَ: كشَفه وبيّنه. صدَع بالحق وبالحجة: تكلم بها جهارًا. صدَع بالأمر: أصاب به موضعَه وجاهَرَ به مصرِّحًا. وصدَع الأمرَ بالحق: فَصَلَه (الأقرب).

التفسير: قد يكون معنى هذه الآية أن جاهِرْهم بقرارنا بهلاكهم وغلبة المسلمين، ولا تناقشهم بعد اليوم، وقد تعني – وأرى هذا المعنى أكثر انطباقًا – عليك أن تستعد للحكم بما أمرك الله به.. بمعنى أننا سوف نتيح لك الآن الفرصة لتطبيق ما أنزلناه إليك من أحكام الشرع تطبيقًا كاملاً بحيث لن تكترث بمكائد الكفار. وكأن هذه الآية أيضًا تمثّل نبأً عن الهجرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير: يقول الله تعالى لرسوله الكريم: لا داعي الآن للنقاش مع هؤلاء المستهزئين، لأننا نريد أن نرد على استهزائهم بآيات من السماء، ونعاقبهم عقابًا

يجعـــلهم عبرة لمن بعدهم. لن نمهلهم أكثر من ذلك، ولن نسكت على إساءتهم إلينا المتمثلة في اتخاذهم الشركاء معنا.

هـــذا النبأ لم يتحقق على نطاق قومي إلا بعد الهجرة النبوية حيث ضُربت على الكفار الذلة والمسكنة؛ غير أنه قد تحقق بشكل فردي أيضًا بصورة مدهشة. فقد قال محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير إن أكبر المستهزئين خمسة نفر.. الأسود بـــن المطلـــب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحـــارث بـــن الطلاطلة. فأتى جبريل رسولَ الله ﷺ في شأنهم وأشار إلى بطن الأســـود بن عبد يغوث، فاجتمع في بطنه ماء أصفر، فمات منه. أما الوليد بن المغيرة فأشار جبريل إلى رجله، وكان بها أثر جرح قديم مندمل، فخُدش، فانتفض به فقتَله. أما العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار لـــه يريد الطـــائفَ، فأصـــيب في أخمص قدمه بشيء كالشوكة، فقتَلتْه. أما الحارث ابن الطلاطلة فأشار إلى رأسه، فجُرح رأسه جرحًا قتَله. أما الأسود بن المطلب فأشار جبريل إلى عينه، فعمي ومات (تفسير ابن كثير، قوله تعالى: إنا كفيناك المستهزئين).

عـــلمًا أن هـــذا مروي أيضًا عن سعيد بن جبير وعكرمة، حيث قال سعيد إن أحدهم هو الحارث بن الطلاطلة، بينما قال عكرمة اسمه الحارث بن قيس، ولكنه ليس باختلاف، إذ قال الزهري إن الطلاطلة أمه، وأن قيسًا أبوه.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٨﴾

التفســـير: قوله تعالى ﴿بما يقولون﴾ لا يعني أن رسول الله ﷺ كان يتضايق مما يقابلـــه به الكفار من السباب والشتائم، وإنما هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿يجعَلون مـــع اللَّه إلَهًا آخَرَ﴾، والمراد أننا نعلم أنك – لما تكنّ لنا من حب بالغ – تضيق صدرًا وتتألم جدًّا من دعاواهم الوثنية، فاستبشِرْ الآن وافرَحْ، لأننا سنقضي على الشرك ونوطد التوحيد.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٩﴾

التفسير: أي سوف نوطد الآن التوحيد الذي هو الغاية من بعثك، فعليك بالتسبيح وأداء الشكر لله فرحةً وسرورًا؛ أو معناه: عليك بتربية المؤمنين بحيث يشكّلون للعالم برهانًا عمليًّا على سبوحية الله وحمده ﷻ.

ما أروعَ ما خفّف الله به على رسوله من وطأة الآلام التي كان يعالجها.

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿١٠٠﴾

شرح الكلمات:

اليقين: إزاحةُ الشك وتحقيق الأمر؛ العلمُ الحاصل عن نظر واستدلال، ولهذا لا يسمى علمُ الله يقينًا؛ الموتُ (الأقرب).

التفسير: اليقين قد يعني هنا الموت؛ فكأن الله تعالى يقول لرسوله: عليك الآن أن تواصل عبادة الله حتى الموت.. بمعنى أنه لن يستطيع الآن أحد الحيلولة دون الغلبة التي سوف نكتبها للإسلام، وسوف تتمكن من عبادة ربك طيلة الحياة نهارًا جهارًا دونما عرقلة ومضايقة، لأننا سوف نستأصل شأفة هؤلاء الذين يمنعونك من عبادتنا.

وقد يكون اليقين هنا بمعناها المعروف، والمراد: عليك أن تعكف على عبادة الله بشكل مركَّز حتى تأتي الساعة التي وُعدتَ بها.. وكأن اليقين هنا تعني ظهور آثار الساعة أي العذاب، لأن الوعد الإلهي لا تتجلى حقيقته بشكل واضح إلا بعد تحققه. فالآية تعلّمنا أنه إذا قطع الله ﷻ لقوم بوعد فعليهم أن ينهمكوا في العبادة والدعاء بشكل خاص لكي يحقق الله ﷻ وعده مع كل خيراته وبركاته.

غـــير أن هـــذا لا يعني أبدًا أنه يجوز للإنسان التهاون في العبادة في أيام أخرى، ذلـــك أن النبي ﷺ كان يعبد الله تعالى قبل نزول هذه الآية أيضًا. فالحق أن الآية إنما تحثّنا على العبادة أكثر من المعتاد في مثل تلك الأيام.

وقد هَرَأَ بعضُ الحمقى من أهل البدعة فقالوا أن هذه الآية تعني أن على الإنسان أن يواصل في العبادة إلى أن يحصل له اليقين، أما بعد ذلك فلا حاجة لـــه بعبادة الله تعالى!

الحـــق أن هؤلاء الحمقى لا يدرون أن قولهم هذا يشكل هجومًا على شخص الرســـول ﷺ، لأن قولهـــم هذا سيعني أن النبي لم يكن - والعياذ بالله - يتمتع بالـــيقين إلى حـــين نزول هذه الآية، لذلك أُمر هنا أن يواصل العبادة حتى يأتيه الـــيقين. وأقول: إذا كان محمد رسول الله ﷺ لم يتيسر لـــه اليقين - كما يزعم هـــؤلاء الجـــاهلون - وذلك رغم تشرفه بالنبوة، فكيف يمكن لهم ادعاء إحراز الـــيقين، وأن لا حاجـــة لهم الآن إلى العبادة؟ نعوذ بالله من هذه الخرافات! مرة جاءني أحد هؤلاء المبتدعين وسألني: إذا وصلت السفينة إلى الساحل فهل ينبغي لراكبها أن ينـــزل عنها أم عليه ألا يبرحها؟ فأجبتُه: إذا كان لذلك البحر ساحل ووصلت السفينة إليه فعليه أن ينـــزل عنها، وأما إذا كان بحرًا لا شاطئ له، فإن مـــا يظنه الراكب ساحلاً فهو ليس إلا خدعة نظره، وحيثما ينـــزل عن السفينة يغرق. فبُهت الذي كفَر.